إبراهِيم الكوني



بَرْقُ الخُلَّبْ

الجزء الثالث

دار النهار

إبراهيم الكوني

سأسِرُّ بأمري لِخِلّاني الفُصُول
ملحمة روائيّة

الجزء الثالث

بَرْقُ الخُلَّب

دار النهار

سأسرّ بأمري لخلاني الفصول
ملحمة روائية

الجزء الثالث

برْق الخُلَّبِ

الطبعة الأولى، تموز ١٩٩٩

ص ب ٢٢٦-١١، بيروت، لبنان
فاكس ٩٦١-١-٧٣٨١٥٩

ISBN 2-84289-132-5

المحتويات

أو تكوني مثل برقٍ خُلَّبٍ
خادعٍ يلمع في عرض الغمامِ
أو كتخييل سرابٍ مُعْرِضٍ
بفلاةٍ أو طروق في المنامِ

(أعشى همدان)

□ □ □

«روح الإنسان ، في سعيها إلى الأمام ، لا بدّ أن تستشعر ضرورة أن تفقد كلّما امتلكت : لأن أشراط الوجود رهينة بالملتبس بالقدر الذي تجد فيه نفسها رهينةً بالحقيقة»

يوهان فولفغانغ غوته

□ □ □

«هذا هو أنا ، وهذا هو أنت ؛ فما يُغتفر لي ، يُغتفر لك»

أرتها شاسترا
(٢٨ : ١٠)

حجرُ الشِّتَاء
(إيكَدِي)

١

فصول الصحراء لا تعترف بالفصول. فصول الصحراء ليست ككلّ الفصول، لأنها لا تعترف بتسلسل الفصول. فصول الصحراء، كالصحراء نفسها، لا تعترف إلاّ بالمغالاة والإنكار والأضداد. فكما تقتصّ الصحراء من أبنائها بالنقيضين: الظمأ أو السيل، كذلك فصول الصحراء الأربعة التي يروق لها كثيراً أن تلتحم في زمنين قاسيين: القرّة في الشتاء، أو النيران في الأصياف. ذلك أن شمس الصحراء لا تريد أن يشاركها في الصحراء شريك، فتسلّط الأصياف على رقبة الوطن، فيجبّ الصيف كل ما جاوره من فصول: يستولي على الربيع البائس ما أن ينقشع الشتاء، ويخلي لقرينه السبيل؛ وينهب الخريف أو ينتهش من أوانه نصيباً، ولا يتراجع حتى يقبل عليه الشتاء ليقمع الجشع بكتم أنفاس الخصم الخالد. فها هو القرص الأبدي ينساب إلى الخسران أخيراً، كما تنساب إلى الخسران كل كائنات

الصحراء، فيحتضر الوحش، ويلفظ الصيف النّهم أنفاسه الأخيرة، فيختنق الضياء، ويقصر أجل النهار، ويقبل الشتاء بذيول ليال لا تنتهي، فتعدم الكائنات الحيَل، ويقرّ الفصل المهزوم بالغلبة، ويعترف بأن الأفول هو القَدَر الذي تحتار في أمره الأقدار، فلا تملك للاحتيال عليه حيلةً. تتنفّس الترباء الصعداء ابتهاجاً بالخلاص من عذاب حريق دام طويلاً. دام فصولاً. دام أزماناً خالتها الأقوام أبداً لن يكتب لهم أن يروا له نهاية. ولكنّ القرّ يأتي أخيراً لينسج من مزن الغيم قماطاً يلفّ به بدن الوطن الوليد. يقبل الشتاء لينقذ الصحراء، ويبدع لها من أنفاسه، المستعارة من بحور الشمال البعيد، أعرافاً تعيد لها أنفاسها الضائعة، وتبعثها من الموت حيّة. لا يكتفي الخصم المكابر بإطفاء الحريق. لا يكتفي الفصل العنيد بإحياء عظام الصحراء وهي رميم، ولكنه يجزل العطاء ويجود بالمزيد: يهشّ بأنفاسه السخيّة قوافل الغيوم كما يهشّ الرعيان إلى المراعي جلائب القطعان. يدفع إلى الصحراء غيوماً كئيبة، ثقيلة، بطيئة، تزحف على صدر العراء زحفاً، تعترضها رياح الضدّ، فتتمهّل، وتتثاقل، وتستقرّ في فضاء الصحراء فسطاطاً يتحلّب منه رذاذ يبدو هزيلاً، كسولاً، شحيحاً، يثير استهزاء البلهاء، ولكنه لا يلبث أن يغرق، بالديمومة، الوديان بالسيول، ويحجب الرؤية بأبخرته الكثيفة، ويقلب، بستور الضباب، النهارات ليال ظلماء، ويحيل الصحراء جزءاً من تلك الأوطان العجيبة التي تقول أساطير الأجيال أنها تسترخي على شطآن الشمال، وتستجير ببحور تنسج لها من مياهها ظلالاً معلّقة في السماء، لتقي الأوطان شرّ الشموس. تتنزّل الشآبيب الكسولة في سعابيب مملّة، مستميتة، لا تنهمر مطراً سخيّاً، ولا تنقطع نهائيّاً، ولكن اللّجاجة تحقّق الغلبة أخيراً، لأن صلد الشعاف الجبليّة لا يلبث أن يرتوي فيدفع بنصيبه من البلل إلى السفوح، والسفوح تدفع بالغمر إلى الأحاضيض، والأحاضيض

تدفع بالمياه إلى الشعاب، والشعاب تختنق بالفيض فتدفع به إلى رؤوس الأودية، ورؤوس الأودية تدفع بالحصص إلى قيعان الوديان السفليّة، والوديان تسوق الغنيمة إلى الذنابات البعيدة سيلاً حقيقياً.

في شتاء بعض الأعوام ينقلب الرذاذ الكسول بَرَداً يكسو وجه الصحراء في الليالي، فإذا استيقظ الخلق صبحاً فوجئوا بستور البياض التي تفترش الأرض، فيهرعون إلى الخلاء للاحتطاب ونزع العيدان التي تعافها النيران بسبب البلل، فيعمدوا إلى تخزينها في زوايا الأخبية لتجفّ، ولكنّ المطر يتسلّل إلى الزوايا من أعالي الأخبية عبر خيوط العهن المنسدلة في الأكفئة، كما يغمرها من تربان الصلد التي تحشرج بالمياه، فيهرع الخلق لصدّها بإقامة المتاريس الترابية، فلا يجدوا حيلة لإنقاذ الأحطاب إلا إخفائها في ثنايا أغطيتهم، فإن تسلّل البلل إلى الأغطية، خبأوها في ثنايا أثوابهم، فإن ابتلّت الأثواب، أخفوها بين ألبستهم وأجسادهم، لأنهم جرّبوا أن الحطب الذي لا تروم عيدانه النار بليلاً، كنز لن يهبهم الدفء، إذا لم يجفّفوه بأحضانهم؛ لن يعير أجسادهم الحياة، إذا بخلوا عليه بدفء أجسادهم.

تنقلب الأيام ليال ملفوفة بالسواد والضباب والظلمات والصقيع، فلا يجد صَحْبان العبور مفرّاً غير الحجر ليسكنوا إليه، ويقيهم شرّ القرّة. يأوون إلى المغاور الجبليّة، ويكمنون بين جدران الصلد، وحيطان الصلصال، لأن الحجر الذي أجارهم من هجير الشموس صيفاً، هو الذي يجيرهم من مسّ القرّ شتاء. وها أنا أنضمّ للقافلة، يا مولاي، أيضاً، وألتجئ إلى رحابك مستجيراً بك من قسوة الشتاء، كما استجرت بك يوماً من جنون خصمه الصيف، فآمنتني اليوم، كما آمنتني بالأمس لا من باب مراعاة تقاليد الشهامة، ولكن لأنّك تعلم أني جئتك حاملاً في قلبي حنيني القديم، ولساني يتلجلج بأغنيتي عن نبل الحجر، وبهاء

الحجر، وسرّ الحجر. سرّ الحجر الذي ورثته القبائل عن أسلاف لم يكتفوا بالتغنّي عن خصال الحجر، ولكنهم تعشّقوا الحجر، فزبروا سيرة الأجيال على صدر الحجر، وحفروا وصاياهم على صلد الحجر، وعندما أعياهم التغنّي، وأتعبهم السرّ، وفاض فيهم الحنين، وقهرهم غصص الشجن، خرّوا أمام الحجر ساجدين، ونادوا بالحجر رسولاً يحمل إلى الأبديّة وصيّة تقول أنهم لم يكونوا بهتاناً ولا أكذوبة ولا زوراً، ولكنهم عاشوا يوماً، وعشقوا يوماً، وغنّوا يوماً، لأنهم عرفوا الحنين أيضاً.

٢

أدركتُ أرباع القوم، ولكنّي لم أدرك القوم. خلّى التّيه سبيلي، فهداني السبيل إلى وطن القبيلة، ولكنه لم يقدني إلى القبيلة. دخلت الوطن أخيراً، ولكني وجدت الوطن أرضاً بلقعاً موسومة بالدِّمَن، تحوم في سمائها الغربان على ارتفاع عال، فأدركتُ أن القوم قرّروا أن يستبدلوا جلدهم كما تستبدل الحيّاتَ القشار، فظعنوا. بلى يا مولاي «إيكدي». أهل الخلاء لا بدّ أن يستبدلوا جلودهم من حين لآخر. أهل الخلاء يستحيون أن يطلقوا على أنفسهم إسم أهل الخلاء إذا لم ينسلخوا عن أرض ليلبسوا جلد أرض أخرى. وإذا كان أهل الواحات يرون في الانتقال من بنيان إلى بنيان، أو من واحة إلى واحة أخرى، بليّة من بلايا الزمان، فإن أهل الخلاء يشيخون ويربلون ويموتون إذا طال بهم المقام في وطن، ويبتهجون وينحرون القرابين ساعة ينطلق في النجوع صوت النذير بنداء الأسفار، لأنهم على يقين أنهم لا

يهجرون دمناً في المكان القديم، ولكنهم يدفنون أرواحهم البائدة إلى جانب أضرحة الأسلاف، ليولدوا، بالأسفار، في الوطن الجديد. وأدهى ما في الأمر أنهم يخفون سرّهم حتى عن أنفسهم، فلا يدرّون الرماد في عيون الأغراب والدخلاء وحدهم عندما يدّعون أنهم يظعنون طلباً للكلأ، أو استكشافاً للأمطار، ولكنهم يتكتّمون عن بعضهم البعض، ولا يبوحون بالسرّ حتى بينهم وبين أنفسهم برغم أنهم لا يستطيعون إخفاء ابتهاجهم بالميلاد ما أن تقرع طبول الرحيل. يتحدّث حكماء القبائل عن أغلال الأمكنة فيقولون إنها ملفّقة بخيوط خفيّة كخيوط الخزّ، أو سبائب السراب، أو سعابيب العناكب التي لا تُرى إلاّ في الضياء. ولكن هذه الخيوط التي يستثير وهنها استهزاء البلهاء، أمتن من سلاسل الحديد إذا تدفّق بها الزمان طويلاً، لأن سرّها مستعار من سرّ النفوس التي لا تُرى أيضاً، برغم أن الكلّ يعلم شيئاً عن سلطانها الذي يزحزح الجبال. ويطيب لهؤلاء الدهاة أن يستطردوا في الروايات ما أن يجيء ذكر النفوس، لأنهم يجدون المبرّر الذي يبيح لهم إنشاد أغنيتهم الأثيرة عن الخفاء، فيروون الملاحم عن المملكة المعشوقة، ويسوقون وصايا الأوّلين برهاناً، ويستعيدون علامات شهدوها بأنفسهم، ويوردون إيماءات أخرى لا يصدّقها أحد، ولا يفهمها أحد، ولكنهم يترنّحون كأهل الوجد، ويدمدمون بآهات الشجن وهم يروون أغاني حنينهم إلى الوطن المجهول، ولكنهم لا بدّ أن ينتهوا يوماً إلى أمر حاموا للوصول إليه طويلاً. ينتهون إلى الوصيّة التي تقول إن العابر الذي جاء إلى الصحراء عابراً يولد بالعبور، ولكنّه، بالركون إلى الأرض، يموت. يردّدون الوصيّة في مجالس الأكابر بأصوات تتهدّج بالعبرة، وبعيون تتلألأ بالدموع والوجد والأحزان، فلا يملك الزعماء إلا أن يستجيبوا، فيأمروا بقرع طبول، وإطلاق النذير ليردّد في الربوع النداء بالرحيل، فلا تمضي أيام قليلة حتى تنقشع القبيلة عن المكان كما تنقشع سحب

الصحراء. تنقشع القبيلة هنا لتفتّش عن مكان آخر يصلح لأن يشهد ميلادها الجديد، فلا تترك في المكان القديم إلاّ الأموات الذين توسّدوا التراب إلى جوار الأسلاف، أو حقول الدِّمَن التي يأوي إليها الجنّ، وتحوم فوقها أسراب العقبان. تترك القبيلة وراءها الدِّمن لأن القوم، كالطير، لا يحطّون إلاّ إلى جوار دمَن قوم سبقوهم إلى المكان. وإذا كان الطير يقع على أشكاله الطَير طلباً للأُنس، فإن القبائل تحطّ في دمن القبائل خوفاً من أشرار الجنّ وطلباً للأمان. قد يدهش مولاي أن تسكن القبائل وطناً صار مملكة لأهل الخفاء ما أن هجرها أهلها الأوّلون، ولكن دهشة مولاي ستنقشع إذا علم أن القبائل تنزل أرض الدمن لتستجير من قبائل الجنّ التي تحتلّ الدمن بأضرحة الأسلاف التي تنتصب على ظهور الروابي وتعتلي شعاف الآكام. يهرع السحرة والكهنة والدهاة لاستعطاف الجنّ بدماء القرابين، ويعتصمون ليال كثيرة بأعتاب الأكداس الحجرية الجليلة التي تخفي عن الأنظار سرّ الأسلاف، ليستجدوا الإلهام، ويعودوا إلى القبائل في الغد بنبوءات العهد. بعدها يطمئن القوم، ويغرسوا في الأرض ركائز الأخبية، وينصبوا في الوطن المضارب والأوتاد.

ولكن للدمن، يا مولاي، فتنة أخرى. الدمن، يا مولاي، ليست أثراً من آثار قوم ظعنوا. الدمن ليست سبائب قشار خلعوه هنا ليرتدوه هناك، في مستقرّهم الجديد. ولكن الدمن خباء خفي لم يدفنوا فيه موتاهم، ولكنهم أخفوا فيه سرّهم، أخفوا فيه عشقهم، أخفوا فيه لغزهم، أخفوا حيرتهم، أخفوا فيه لهفتهم، أخفوا فيه قلوبهم، أخفوا فيه حياتهم قبل أن تقرع طبول الميلاد في آذانهم ليهبّوا استجابة لنداء الميلاد. الميلاد الذي لا يولد قبل أن يمرّ بهم في سبيل التّيه، فلا يدركون أوطانهم أبداً، لأنهم لا يحطّون رحالاً في أرض، ويسموا تربانها بدمنهم حتى يفزّوا من جديد ليطلبوا الوطن في خلاء آخر متظاهرين بمطاردة الكلأ. ولكنهم لا

بدّ أن يفعلوا ذلك إذا أرادوا أن يولدوا من جديد، هناك، في الوطن الجديد الذي يفرّ منهم دوماً كلّما اقتربوا منه. لهذه العلّة يتزعزع الدهاة رهبة ما أن ينزلوا أرضاً وسمتها الدمن، لأنهم يعلمون أن الدمن هي الأم، يعلمون أن الدمن هي أجيال القبائل، يعلمون أن الدمن هي الأسلاف، يعلمون أن الدمن هي ناموس الأسلاف، يعلمون أيضاً أن لا وجود لا لأم الصحراء، ولا لأجيال الصحراء، ولا لأسلاف الصحراء، ولا لناموس أسلاف الصحراء، في أيّ مكان آخر خارج الدمن. الدمن هي الوطن الأوّل. الدمن هي الواحة المفقودة. والدمن، أيضاً، هي الوطن الأخير، هي «واو» الأحلام التي تفرّ من وجه الحميم، ولا تترك وراءها إلاّ الدمن.

كل أهل الصحراء يدركون أنهم سلالة مدينة بحياتها للدمن، لأنهم رضعوا في حليب الأمهات وصيّة تقول إنهم من مملكة الدمن ساروا، وإلى مملكة الدمن يسيرون، ولا يبقى وراءهم إلاّ الدمن عندما يرحلون.

٣

أخبرني رعاة إبل انقطعوا بالقطعان في بعض الأودية الجنوبية الشرقية أن القبيلة نزلت المحاضر في الجنوب لترابط على الآبار استعداداً لقضاء الصيف، ولكنّ بطوناً كثيرة انسلخت عن جرم القبيلة وطاردت الكلأ في جهات الصحراء الأربع. أمّا الأب فقد نزح نحو أوطان أجداده في وديان «أيغهرملّن» في الجنوب الغربي بُغاء أمطار قيل إنها سقطت هناك. هؤلاء الرعيان هم الذين فجعوني في الأمَة فقالوا إنها قضت النحب منذ أمد بعد أن عانت من وباء مميت دهم النجوع وحصد من أبناء القبيلة ضحايا كثيرة. توسدتُ أحراشاً بعيداً عن حلقة الرعاة، وطاردت، الليل كلّه، السماء المزروعة بحشود النجوم. كنت لا أصدّق أنني حُرمتُ من الأمَة إلى الأبد. كنت لا أريد أن أصدّق أنّ بصري لن يقع على ذلك المخلوق الخالد الذي لم نره يغمض عيناً لينام، أو يفتح فماً ليتكلّم، أو يقطب جبيناً ليحتجّ. كنت لا أعرف أين يمكن أن

تذهب الأمَة إذا لم تسند ظهرها إلى الركيزة لترقص مع شكوة الحليب في الصباح، أو أين ستغيب إذا لم تنصب الأثافي لقدر العشاء في ركن الخباء، أو أين ستختفي من مباءة الأنعام لتحتلب الأنعام، أو إلى أي أرض ستنزل إذا فرّت من الخلوات المجاورة التي تخرج إليها لتعود إلى البيت بالأحطاب. ولو صدق النبأ، لو صدق ما حدّثني به الرعاة، فلا بدّ أن أصدّق الخلل. ولو صدّقتُ الخلل فمن سينصب الأثافي لقدور العشاء؟ ومن سيعتصر ضروع الأنعام ليعود إلى الخباء بعُسّ الحليب المعمّم بأقنعة الرغوة؟ ومن سيدحرج شكوة الصباح بين يديه ليبدع بوجده وحنينه وجنونه الزِّبد العسير؟ ومن سيملأ الخوابي بكنوز السمن؟ ومن سيستبدل كنوز السمن بتمور الواحات، أو شعير الشمال، أو الزيوت التي تجلبها القوافل من قبائل الأجبال، أو أقمشة الأثواب؟ وإذا خلا الشنّ في زاوية الخباء من التمور والحبوب والزيوت وقماش الأثواب، فكيف يأكل أهل البيت خبزاً أو تمراً أو زيتاً، أو يرتدون كتّاناً؟ وإذا لم يأكل أصحاب البيت خبزاً أو تمراً، ولم يستروا أبدانهم بكتّان، فكيف يستطيعون أن يقنعوا أنفسهم بأنهم ما زالوا، حقاً، أحياء؟ فبأيّ حقّ تستطيع الأمَة أن تغيب؟ وبأيّ حقّ أصدّق أن من حقّ الأمَة أن تغيب إذا كان في غياب الأمَة ليس غياب الأمَة، ولكن في غياب الأمَة غياب الحياة؟ أجل، يا مولاي، أجل. الأمَة لم تكن لنا أمّاً وحسب، ولكنّ الأمَة كانت، من قديم، أمّ القبائل. الأمَة لم تكن أمّ القبائل وحسب، ولكن الأمَة كانت من قديم، أمّ الصحراء. الأمَة لم تكن أمّ الصحراء وحسب، ولكن الأمَة كانت، منذ أقدم الأجيال، أمّ الحياة في الصحراء. فكيف أصدّق أن بصري لن يقع، بعد اليوم، على مخلوق لم يكن لي وحسب أُمّاً اعتدتها وخبرتها وأحببتها أكثر من أمّ نذرت نفسها للنّحر كي تنجبني من بطنها، ولكنّه كان أمّاً للقبائل، ومربياً للأجيال، وربّاً من أرباب الصحراء، ومبدعاً لحياة الصحراء؟

كيف أعترف لنفسي أنّي لم أفقد أمّاً أو مربية أو ملهمة، ولكني فقدت بفقدان الأمَة معشوقتي الصحراء؟ وكيف أستطيع أن أفقد معشوقتي الصحراء دون أن أفقد نفسي مقابل فقدان الصحراء؟

ولكنّ إلهاماً خفيّاً أسرّ لي بوسواس صار لي في فجيعتي عزاء. الوسواس الغامض أعارني اليقين بأنيً لن أفقد الأمَة إلى الأبد لا لأنّها غدت، منذ أوّل يوم، جزءا مني، ومن قريني، ومن كلّ شيء متّ لي بصلة، ولكن لأني لن أستطيع أن أنسى الأمَة حتى لو أردت أن أنسى الأمَة، لأن الأمَة (ذلك المخلوق الذي لا يتكلّم ولا ينام ولا يأكل) لم تكن مخلوقاً يدبّ على قدمين ككل المخلوقات، ولكنها كانت، منذ عرفت السبيل إلى الذاكرة، طيفاً من أطياف الأهوية، أو روحاً من أرواح الخفاء، أو عطيّة من عطايا أخيار الجنّ، والناموس الذي علّم الأجيال هو الذي أوصى فقال في إحدى وصاياه إن مخلوقات من الجنس هي المخلوقات الوحيدة التي لا تموت لأنّها لا تنسى، وما لا ينسى خالد بالسجيّة لأنه صار غنيمة من غنائم الذاكرة، والذاكرة هي دليلنا الوحيد إلى أوطان الخلود لا الأبصار.

في فجر تلك الليلة رأيت في قلبي الرؤيا، وأيقنت أن الأمَة لن تموت ما لم تمت في رأسي الذاكرة، وستبقى حيّة في قلبي ما بقي قلبي ينبض بسرّ إسمه الحياة.

٤

رأيته في صحصاح الخلاء، كأني أراه لأوّل مرّة. رأيته مسربلاً بسبوب الغسق في ذلك اليوم، فتراءى لي مخلوقاً آخر لأني لم أكتشف الغلّ الذي يطوّقه إلا في تلك الوقفة. أجل، أجل. كان مخلوقاً مغلولاً يا مولاي: مغلولاً بالحنين، مغلولاً بالعهد، مغلولاً بالوحشة، مغلولاً بالعزلة، مغلولاً بالهلاك. فهل كان الأب مغلولاً بالهلاك بسبب العزلة، أم بسبب الكبرياء؟ هل حكم الآباء على أنفسهم بالتهلكة يوم قرّروا أن يتطاولوا ويحقّقوا لأنفسهم خلود الآلهة، فحكموا على أنفسهم بالزوال قصاصاً، لأنهم اكتشفوا أن الصولجان لا بدّ أن يختلس في غفلة منهم، لأن الأبوّة استدرجتهم يوم اتّخذوا لأنفسهم أبناء؟ لا أدري. ولكني أدري أني لم أسفح دمعاً، وقلبي لم يتضعضع بالشفقة برغم أني أستطيع أن أقسم اليوم بأني لم أشهد وقفة إنسان أجدر بالشفقة من وقفة الإله الأبدي يومها في ذلك الصحصاح الملفوف بسربال

الغسق الكئيب. كان ينتصب في حزنة هزيلة اعشوشبت وتنوّعت فيها النّبوت؛ حزنة من الجنس الذي يجود بكنوز الكمأ، لأنها تحتكر مياه الأمطار التي تفيض عن حاجة الحزيز الذي يطوّقها من الأجناب الأربع، وتستبقيه في حضنها زماناً يكفي لإرواء بذار القصيص، فلم أعرف عمّا إذا كان يفتّش، في الخبّ، عن الكمأ، لأني لم أتضبطه منحنياً عندما تكشّف لي في امتداد الخلوة أول وهلة، فتبلبلت بوسوسة خفيّة، ربما لأني ورثتُّ، كما ورث كل الصحراويين، الوصيّة التي لم تبح لأهل الصحراء البقاء في الخلوات كأنصاب السبل، أو أصنام الأضرحة، ولكنها حثّتْ إمّا على الانطلاق ما انطلق الخلاء كما يليق بكلّ عابر انتمى إلى سلالة العبور، أو الالتهاء بالبُغْية التي خرج في طلبها، لأن الناموس يرى أن البقاء في الصحراء بقاء الأنصاب خطر يثير حنق الخفاء، ويصيب القلب بداء البلبال. وعلّ هذا الخطر، علّ تلك اللعنة، هي التي رأيتها تطوّق عنق الأب بذلك الساهور الذي قرأت فيه مصير الأب، فأدركت، كما لم أدرك يوماً، أن الإنسان لا يحتاج لأن يكون عرّافاً لكي يتكلّم بالنبوءة، ولكن يكفيه أن يحسن التجسّس على وساوس القلب قبل أن يتدخّل الخفاء ليستولي على كنوز القلب بحيلة النسيان؛ ذلك أن العابر الذي يهب نفسه حقّ الوقوف في العراء الخالد هو مخلوق ضائع إذا لم يكن إلاهاً، وما يخشاه أهل العراء هو الضياع وليس الهلاك، لأن الهلاك لا ينقلب هلاكاً حقيقياً إذا لم تسبقه وقفة خفيّة كوقفة الأب في عراء ذلك المساء، حتى أنه تشبّث بالصمت، عندما انتصبتُ في وجهه، فلم يحدّثني لا عن المناخ، ولا عن تقلّب مزاج الصحراء، ولا عن المياه التي تدفّقت في الوديان، ولا عن أحوال الزمان، ولم يُجرِ على لسانه أي أمر يصلح طلسماً لفتح الجدل بين مخلوقين جمَعهما سرّ، وفرّقهما سرّ، ثم عاد السرّ وقدّر أن يجمع بينهما مرّة أخرى. ولكن الصمت، يا مولاي، غول آخر إذا تمدّد وتمادى وجرى به

الزمان طويلاً. الصمت ضياع من جنس فريد إذا صار بين المخلوقين لساناً. الصمت أحبولة أسوأ من أحابيل المهالك بالنسبة للمخلوق الذي لم يخلق إلاّ ليتكلّم. والخوف من هذا المصير هو الذي أوجد في وطن الصحراء اللغو الذي سمي لغة، لأن الإنسان عندما يقف في مواجهة الإنسان لا بدّ أن يبرهن على أنه إنسان وليس جنّاً، فلا يجد حيلة يدلّل بها على سلالته كإنسان إلاّ عضلة اللسان، فيتكلّم، وينطلق ليثرثر حتى لو لم يجد للثرثرة مبرّراً، لأن سجيّة الدفاع عن النفس، في السلالة، أقوى من غول المواجهة. لهذا السرّ ابتدعت الأجيال للأجيال سيَراً عن أحوال الأزمان، وأخبار الغيث والجدب ورياح الجنوب، وأنباء الأحياء والأموات، ليميتوا في أنفسهم الشكوك، وليحتالوا على النوايا، ويفتّشوا هنا وهناك، ويحوموا حول الكنز طويلاً قبل أن يقرّروا تسمية الأشياء بأسمائها وينطقوا بكلمة السرّ. الأب، في ذلك اليوم، تحايل طويلاً أيضاً قبل أن يجد المفتاح وينطق بكلمة السرّ:

- لا يجب أبداً أن نحبّ أي شيء أكثر ممّا يجب!

لم أتوقّع أبداً أنه سينكش السرّ رأساً. لم أتوقّع أبداً أنه سينحر حرمة الصمت بتلك المدية القاسية المستعارة من خبايا الناموس المفقود، فاستفزّني الفضول، واستفهمت بإيماءة. استفهمت فسمعته يكرّر العبارة بالألفاظ نفسها، بالاستعلاء نفسه، باليقين نفسه، بنغمة الحزن نفسه. فتّشت عن عبارة تصلح لي حجّة، فتّشت عن عبارة تصلح برهاناً في وجه إنسان كان سبباً لكلّ أوجاعي منذ أن وهبني حياة لم أخترها، ثم نحر أمامي المخلوق الوحيد الذي استطعت أن أركن إليه، ثم اختلس منّي كنزاً كان لي في المحنة عزاء وحيداً، ثم قيّدني بالغلّ ورماني في قاع الوادي ليقدّمني قرباناً لإله الوديان، ولكني لم أجد عبارة واحدة تستطيع أن تلمّ بالمحنة، فاختنقت بالغصّة، واستفزّ العجز في عينيّ الدموع. عرفت ساعتها أن القول بلسم عظيم لا يدرك سرّه إلاّ

المخلوق الذي فقده، فبكيت. بكيت بدمع كماء النار، وأيقنت أني سأصاب بالعماء لأني أحسست كيف احترقت في العينين المقلتان وغشتهما الظلمة، وربما لم يكن ليحدث كل ما حدث بعدها لو وجدت إلى عضلة اللسان سبيلاً في ذلك اليوم، لأن اختناق الكلم في حلقي أجّج النار التي تتأجّج في صدري، وكان لا بدّ أن أفعل شيئاً ينفّس عني الكربة ما دمت لم أستطع أن أقول، أن أتكلّم، أن أبرهن، أن أحاجج، أن أحيا. بلى، بلى، لا بدّ أن أتكلّم إذا أردت أن أحيا. وإذا فشلت في أن أتكلّم لأحيا، فلا بدّ أن أفعل شيئاً لأحيا، فعرفت يومها أن الإنسان لا بدّ أن يقول نفسه إذا أراد ألاّ يفتك بجليسه. عرفت أننا لا نتكلّم، في الحقّ، إلاّ لنميت نوايانا في قتل من يجادلنا أو يجالسنا، ولو عجز الإنسان عن مخاطبة أخيه الإنسان بعضلة اللسان لفتك الإنسان بأخيه الإنسان بلا أدنى تردّد، ولانقرضت من الصحراء سلالة الصحراء؛ لأن الإنسان ليس في حاجة لأن يفعل، لأن يعادي، لأن يرتكب إثماً، لأن يميت، إذا استطاع أن يتكلّم، إذا استطاع أن يستبدل الكلم بالفعل، لأننا، يا مولاي، سلالة إذا تكلّمت لا تفعل، ولا بدّ أن تفعل إذا لم تتكلّم. لا بدّ أن تفعل شرّاً إذا لم تستطع أن تقول شرّاً. وهذه هي أعجوبة اللسان يا مولاي. أعجوبة اللسان أنه أنقذ سلالة الإنسان من كيد الإنسان ضد أخيه الإنسان يوم تكلّم. ولو وُهبت في ذلك اليوم لساناً، لو وُهبت قدرة على الكلم، لو تحرّكت بين فكّي عضلة الإعجاز وتزحزحت قليلاً لما امتدّت يدي إلى الإبط لتتحسّس المدية المدسوسة تحت الكُم في جوف الإبط. قبل أن أستلّ السلاح سمعت من فمه عبارة أخرى:

– دافعت عنك من حيث حاولت الدفاع عنه، فهل تدري؟

لم أفهم. لم أفهم ربما لأني لم أرد أن أفهم. لم أفهم ربما لأني لم أعد في حاجة لأن أفهم. لم أفهم لأني لم أعد أسمع بقلبي ما يقع في سمعي. لم أفهم لأن الأوان كان متأخّراً لكي أفهم.

تقدّمت نحوه خطوة، خطوتين، ثلاثاً. انتصبت في وجهه حتى كادت تتلامس في رأسينا العمامتان. ولكنه لم يتراجع، ولم يتزعزع، ولم يستبدل وقفته الأبديّة، وقفة المخلوق الضائع الذي حكم على نفسه بالهلاك قبل أن تحكم عليه الأقدار بالهلاك، فسمعته. سمعته مرّة أخرى:

- لقد رأيت ما لم تره يومها. لقد رأيت ما أراه أمامي الآن!

لم أرَ حقّاً. لم أرَ ما رآه، ولم أرَ ما يجب أن يُرى، كما لم أعد أراه هو نفسه في ذلك الأوان، لأن الظلمة في العين اشتدّت، ولسان المدية انسلّ من غمد المدية، وتسلّل ليتكلّم نيابة عن لساني المفقود. تكلّم لسان المدية ببراعة خبرتها في لسان المدية ليسكت بكلامه لسان الإنسان.

ولكن لسان الإنسان كان من القوة بحيث استطاع ان يتكلّم بوصيّة الإنسان الأخيرة:

-لم أشكّ أبداً أنك ستفعل هذا!

٥

تعقّبتُ الأثر. تعقّبت أثر النعل المزبور على وعوثة الترباء في وجهته المضادّة. تتبّعته عكساً. تتبّعته من الجهة التي أقبل منها لا إلى الجهة التي ذهب إليها. لا الى الجهة التي ذهب إليها ولكنه لم يبلغها. لأننا اعتدنا أن نفتّش عن المنبت لا عن المصير. لأننا اعتدنا أن نبحث عن المنطلق لا عن الغاية التي ينتهي اليها المنطلق. لأننا ابتلينا بهمّ اسمه الأصول بعد أن أعيتنا الحيل وغلبنا اليأس من الوصول الى سرّ اسمه المنقلب. لهذا فإن صحبان القيافة ودهاة الآثار لا يطلبون بغيتهم في السبيل الذي ذهبت إليه، ولكنهم يتعقّبونها إلى الجهة التي أقبلت منها، ليقينهم بأنهم لن يعثروا على البُغية في المكان الذي ذهبت إليه إذا لم يعثروا عليها في المكان الذي انطلقت منه؛ لأن الضالّة التي لا تهتدي إلى الوطن، ضالّة لن تهتدي إلى أيّ وطن، والضالّة التي لا وجود لها في الأوطان، ضالّة لا وجود لها في أي مكان. لهذا السبب خرجت في طلب

الأب في أرباع الوطن الذي أقبل منه الأب ليقيني أني لم أفقد الأب في الموقع الذي تولّت فيه المدية أمر الأب، ولكني سأنال الأب في المكان الذي يجب أن أنال فيه الأب، في المرجع الذي لن يفرّ منه الأب، في الوطن الذي أفشى السرّ، وقدح الزند، وأجاد بالسَّقَط، وأنجب من المجهول الأثر، الإيماء، العلامة التي رأيتها مطبوعة في لميس الترباء برغم تشلشل الأرض بسرابيل العتمة في ذلك المساء. الأثر الذي رأيته محفوراً في التربة بذلك الوسم الغامض هو ما تبقّى من الأب، هو ما يتبقّى من كل كائن لم يكن منذ البدء سوى علامة في رحم المجهول، ولا يعود إلى رحم المجهول إلاّ علامة، إلاّ إيماء، إلاّ أثراً. يبدع العابر بجسده الأثر الذي سيرثه عندما يمضي في السبيل مستجيباً لنداء التيه. يطبع شارة خلوده في بطن الأرض بقدمه، أو يحفرها وصيّة في صلد الصخر بيده، أو يزرعها في رقعة السكون أغنيةً بلسانه، أو يودعها في رحم أنثاه سرّاً بالعضلة، قبل أن يذهب من وطن الصحراء ويتسلّل في غفلة من المجهول ليسكن بيته الأبدي الذي أقامه لنفسه في العلامة. لأن الإنسان، في عُرف الأجيال، ظلّ زائل، ولكن العلامة هي طلسم الإنسان الذي يبقى من الإنسان. والزوال غول نبيل لأنه لم يحدث أن باغت في الصحراء إنساناً لم يفرغ من ابتداع العلامة. الأب، أيضاً، لم يخرج من فردوسه الصحراء قبل أن يبتني لنفسه، في الوطن المستحيل، بيته الأبدي، وأتمّ صنع العلامة. صنع في رحم أنثاه كلمته، علامته، بعد انتظار عسير، بعد امتحان عسير، فخرجت العلامة إلى النور علامة واحدة، ولكن بجرمين إثنين، في مخلوقين اثنين، فأخطأ إذ ظنّهما علامتين اثنتين، محشورتين في وريثين اثنين، ففرّقهما قهراً ظنّاً منه أنه يستطيع أن يفوز بعلامتين إثنتين. ولم يكن يدري أن طلب الخلود مرّتين رذيلة لا تختلف عن رذيلة الطمع، أو رذيلة إنكار الإحسان، أو رذيلة الكيد لذوي القربى. ساق تنين الرذائل

برؤوسه الثلاث الأب بعيداً، فغاب عنه أن الخالق الذي انتهى من خلق العلامة لم يبق له إلاّ أن يشدّ الرحل على المطيّة ويرتحل، لأن الناموس أوصى بعدم جدوى بقاء الخالق في أرض انتهى فيها من إبداع المخلوق، والعلامة إذا انتصبت، فما على صَاحب العلامة إلاّ التخلّي. ويُروى أن التلكؤ في تلبية النداء كان سرّ كل الشرور التي عرفتها الأجيال منذ أقدم الأزمان، والأب لم يخالف الشرع القديم عندما نسى أن الأبناء علامات الآباء، والآباء لا يصيرون أهلاً للخلود في قلوب الأبناء إذا لم يهلكوا بيد الأبناء.

٦

بصرت بالخباء في السبسب المسلنطح فهزّني وحرّك حنيناً عرفه كلّ من فقدوا، يوماً، السبيل إلى الخباء؛ كأنّ الأخبية لم تخلق لتأوينا، ولكنها خلقت لتدغدغ فينا الوسواس المجهول الذي يدفعنا للفرار من سلطانها وتسليم أنفسنا لبطاح لا نعثر فيها على ضالّتنا أبداً لأنها لا بدّ أن تنتهي يوماً، لا بدّ أن تنتهي في أفق ما، إلى ذلك النسيان الذي تقود إليه كل متاهة، فندرك بعد فوات الأوان، ندرك بعد أن يتقوّس الأفق ويقفل في وجوهنا الدائرة لنكتشف أن السرّ الذي خرجنا وراءه ولم نقع عليه في المدى، هو كنز مدفون تحت ركيزة الخباء. ولو تصبّرنا، لو أوتينا من علم الخفاء قليلاً، وغلبنا في نفوسنا شهوة الأسفار، لأدركنا أن الخباء ليس حصناً نسعى للتحرّر منه لنكتشف النبوءة، وليس وطناً نحتمي به من عتاة الجنّ زمن الطفولة، وليس عُشاً يجيرنا أهوال القرّ أو الهجير أو العجاج، ولكن الخباء حميمنا الأوّل الذي لا بدّ

أن نرجع إليه مهما تهنا، لا بدّ أن نبكي حنيناً إليه مهما طُفنا، لأنه يحتضن سرّنا الذي فقدناه بالميلاد، لأنه يخبئ في جوفه النبوءة المجهولة التي غيّبها عنّا وباء النسيان، فخرجنا إلى بطاح الخلاء لنستردّها، فتجاهلنا وصيّة الخباء، وصممنا آذاننا عن ندائه الذي يحذّرنا من الخطر، ويذكّرنا قائلاً أن ضالّتنا لا وجود لها في الأوطان، ونيلها لا يشترط أسفار الأهوال، لأنها لا تتخبّأ في مكان أبعد من العمود الجليل الذي ينتصب في المركز ليشيّع فوق الرؤوس الخباء، ويستعير دور مارد الجنّ الذي يخترق الفراغ ليستنزل النبوءة من رحاب السماء. ولكن الشبح استفزّني فنفرت. الشبح الذي انتصب في المدخل صدّني فتزلزلت، وتبلبلت، وأنكرت لهفتي للقاء الركن الذي استدرجني بالسرّ، الذي أغواني بالكنز، ووعدني بنبوءة كانت بُغيتي في كل أسفاري، فأي شرّ يتخفّى في جرم هذه الجنيّة التي يسمّيها لسان القبائل إمرأة؟

جفل في الجؤجؤ طائر الحنين، واستيقظ في المجهول تنّين. اكتسى العراء بسبوب دامٍ كنزيف حقيقي، واشتدّت الحمرة في أفق الغروب بسخاء يلوّح بنبوءة خفيّة، ولكن السكون تمادى واستولى على أركان الصحراء الأربع، دون أن يفلح في ابتلاع الإحساس بالنبوءة، بل ضاعف الهاجس، ومدّ الإحساس بالوحي بغذاء جديد، بعيد، غامض، مستعيراً غموضه من غموض الأفق الحزين المخضّب بالدمّ. بعدها: سلّمت أمري للتنين. بعدها استسلمت فتولّى التنين الأمر عنّي. استسلمت فقادني التنين من يدي، وذهب بي إلى الخباء. ذهب ليقتحم بي الخباء. لم أجد في حلقومي غصّة كتلك الغصّة التي خنقتني عندما وقفت في مواجهة الأب بالأمس، ولم أستشعر الحاجة إلى الكلم كما استشعرت عندما قرّرت أن أجادل الأب، ولم أجد للسان الذي أعجزني بالأمس رسالة اليوم لأني لم أجد ضرورة لاستعمال اللسان،

وحتّى عندما استلّ التنين المدية من ردني ووضعها في يدي لأبدأ مراسم القصاص لم ينطلق لساني بالأغنية القديمة التي رافقتني زمن الطفولة في غزو خندق الجنيّة، لأن صدري هو الذي انطلق باللحن المقدّس وليس لساني. ابتدأ النغم أنيناً بعيداً كعواء الريح في شجيرات الرتم، ولكن المارد ما لبث أن نفخ فيه من أنفاسه الناريّة فتأجّج، واشتدّ، وعلا. اقتربت منها حتى كدت أن أصدمها بصدري، فتراجعت إلى الوراء مذعورة. في عينيها الفاتنتين حلّق الفزع المجدوح بالاستجداء، والإغواء، والوعد الوحيد الذي تستطيع الأنثى أن تدفعه للرجل، لتدفع به الرجل، وتدافع عن نفسها، فأدهشني كيف استطاعت الداهية أن تحتال على الزمان، فتخطّاها، ولم ينل منها، كلّ هذا الزمان، فهل أغوته بالفتنة أيضاً حتى تخلّى لها عن الفتنة؟ هل استدرجته بالشهوة أيضاً، ودفعت له جسدها لتأمن شرّه، أم تحايلت الخبيثة على الإله الذي لم يحتل عليه إله يوماً لأنها لم تكن سوى إلاهاً آخر يتخفّى في بدن امرأة، ذلك الإله الرهيب الذي تخفّى في جلد الحيّة يوماً، وصار للمرأة قريناً عندما استبدل جلدته بجلد المرأة؟

انسحبت إلى الوراء فانسبت وراءها. تراجعت دون أن تشيح ببصرها، دون أن ترمش بعينيها، دون أن تتنازل عن إيماء الإغواء في مقلتيها. تراجعت حتى صدّتها الركيزة فأدركتها. أدركتها وتنفّست باللحن في وجهها. استحال النشيد موّالاً من مواويل الأشجان الأولى، مناحة من مناحات المفجوعين وصحبان المواجع. ساعتها أبصرت كيف اشتدّ الألق في عينيها، ودفعتْ إلى وجنتيها بفيض فتنة جديد، فحدستُ أنها قرّرتْ أن تستميت، قرّرت ألاّ تستسلم، قرّرت أن تدافع عن نفسها بكل ما أوتيت من دهاء، فتبسّمت بسمة مثيرة، بسمة نداء مجدوح برجاء الذين يساقون إلى نطع القربان ليُنحروا. كانت على يقين أن الفتنة ستغلب طال الأمد أم قَصُر الأمد. بسمتها فضحت يقينها بأن

سلاحها أقوى من أسلحة كل المردة، وكل التنانين. بسمتها كلّمتني فقالت أني لن أقدر على قهرها لأنها امرأة، والمرأة سليلة السلالة التي شقّت لسانها شطرين لتدفن بتخريب اللسان سرّها إلى الأبد، فسمّتها القبائل حيّة لأن الحياة فيها لا تموت. بسمتها استفزّتني لأنها حدثتني بهزيمتي أمامها يوماً من أيام الطفولة. مدّت يدها أيضاً. تسلّلت بيدها وسرحت في ثيابي. دبّت هنا، ودبّت هناك، ولم تتوقّف حتى عرفت السبيل إلى تكّة سروالي. فكّت وثاق التكّة بأنامل الدّربة، ودفعتني بيدها الأخرى بقوّة فوجدت نفسي مطروحاً إلى جوارها في المخدع المطروح إلى جوار الركيزة. غزتني بأنفاسها، ولهاثها، وعطر جسدها حتّى أصابني الدوار. عصف بي الدوار، ولكن المارد لم يمت. المارد وشوش لي بأكذوبة المخدع. المارد حدّثني بخطورة المخدع. المارد قال لي أن المخدع هو الخدعة التي تستدرج بها المرأة الرجل، المخدع هو الخدعة التي اخترعتها المرأة لتقضي بها على الرجل، لأن هذا الأبله يظنّ، كما يظنّ كل أمثاله من الذكور البلهاء، أنه يستطيع في هذا الفردوس أن يمتلك المرأة، ولا يدرك أن المخدع شرك المرأة للاقتصاص من ضحايا المرأة إلاّ بعد فوات الأوان. في المخدع تنال المرأة من الرجل سلالة تصير للمرأة حياة في حين تصير للرجل هلاكاً. في المخدع تأخذ المرأة من الرجل الحياة وتعطيه الموت. في المخدع يموت الرجل، وتحيا في أحضان المخدع المرأة. تحيا المرأة، بالمخدع، إلى الأبد، ويموت الرجل، بالمخدع، إلى الأبد. ولكن اللئيمة نسيت المدية. المرأة اخترعت المخدع لتحيا بالمخدع وتميت الرجل، فاخترع الرجل المدية لينال المرأة. أجل، أجل. المدية هي الحيلة الوحيدة التي ابتدعها دهاة السّحر في الأجيال الأولى ليثأروا لأنفسهم من مكيدة المخدع. بالمدية نال الرجل المرأة لأوّل مرّة، بعد أن نالته المرأة بالمخدع نيل الأبد. استردّ الرجل حياته التي اختلستها المرأة في المخدع بحدّ المدية، فصار الموت للمرأة مخدعاً

بعد أن كان المخدع موت الرجل. بلى. بالمخدع تأخذنا المرأة إلى الموت، ولكننا ننال المرأة في الموت. وها هي تستطلع بأناملها اللئيمة العضلة! ها هي تجوس في ثنايا الأثواب، وتقتحم الحرم بحثاً عن الطُعم الذي تريد أن تستدرجني به لتميتني في المخدع! ها أنا أستعير منها كل شيء، ها أنا أستعير دورها كلّه، ها أنا أداعب نحرها بمديتي المميتة لاهياً، منتظراً الوهلة التي سأرى في عينيها الهزيمة لأسحب سلاحي وأضع بيدي خاتمة انتصاري. ها هي البسمة تنتقل من شفتيها إلى شفتيّ! ها هو إيماء الدهاء يموت في مقلتيها لينتقل إلى مقلتيّ! ها أنا أستعير منها كلّ شيء، ها أنا أستعير دورها كلّه، ها أنا أستولي على طبيعتها كإمرأة بعد أن اكتشفتْ، بين الفخذتين، غياب العضلة، فشهقت، وفزّت، وجحظتْ مقلتاها بالدهش والهول والبغض! ها - ها - ها - ها! انطلقت القهقهة غصباً. انطلقت القهقهة رغماً عنّي، ولكنها نفست عن شماتة كتمتها في صدري أعواماً، أزماناً، أجيالاً، دهوراً لا يحدّها إلاّ الأبد الذي لم يُعرف له حدّ. لم أكتف بإطلاق ضحكتي الخالدة، ولكني ملت عليها لأوشوش في أذنهاَ بصوت كفحيح الحيّات:

- هل رأيت؟ لقد عرفت كيف أتحرّر لأنالك! لو لم أصرْ مجبوباً لما صرتَ إمرأة، ولم أصرْ إمرأة لما وجدت لنيلك سبيلاً...

تزعزع صدري بقهقهة مكتوَمة، ولكني قطعتها فجأة. قطعتها لأن جسدي ارتجّ بزلزلة، والمدية رقصت في الهواء، وارتادت الفراغ، ولكنها قبل أن تهوي لترسم على النحر علامة القصاص حشرج التنين في صدري:

- إذا لم تثأر المرأة بنيل الرجل في المخدع، فإن الرجل لا بدّ أن يثأر لينال المرأة في الموت!

٧

اغتربنا. حملنا على البعائر أخفّ المتاع، واغتربنا. دفعنا أمامنا قطيع إبلنا كلّه. ونزحنا إلى وديان «تارات». عزّبنا هناك أمداً، ولكن السيرة لم تجرِ له على لسان أبداً. ربما لم تجرِ له على لسان، لأنها لم تجرِ لي علىَ لسان؛ لأني اكتشفت أن الزَمان الذي فقدته فيه لم يزدهَ إلاّ وجوماً وانطواء وتشبّثاً بتلابيب الصمت: لم يعاندني يوم أخذته من يده وسرت به إلى البعائر لنرحل، ولم يساءلني عن النَّوى يوم غرّبت، ولم يحاججني يوم اخترت «آزجر» الأدنى وطناً جديداً، بل أنقاذ لي انقياذ جمل ريّض، كأنه كان ينتظر هذا اليوم، كأنه كان ينتظر، منذ افترقناً، اليوم الذي سأقبل فيه لأتولّى الأمر. ولكن ما أدهشني حقاً أنه لم يجادلني في أمر الأب أبداً. حاولت مراراً أن أرتبئ خفاياه بالإيماء، واحتلت لاستدراجه إلى الكلم كثيراً، ولكنه تنصّل في كلّ مرّة واعتصم بحصون السكوت، فأقلعت. أقلعت زماناً لم يطل، لأني فاجأته

مرّة يختلي بنفسه وينتحب وراء صخرة نحيباً مريباً، مكتوماً، موجعاً. وقفت فوق رأسه، ولكني لم أسائله لا إجلالاً للوجع، وإنما ليقيني بأنه لن يغفر لي إذا تكلّمت بتعاطفي وأسمعته كلمة عزاء. انصرفت فأدركني بعد حلول المساء. استلقى على قفاه فوق ترباء لميسة منمنمة بنسيج من حبيبات الحصباء. تطلّع إلى البدر السخيّ، فرأيت في مقلتيه ألقاً كالبلل. فاجأني بعد قليل:

– كان يعرف أنك ستفعل ذلك...

أجبته في الحال:

– وكيف يجهل وصايا الناموس مَنْ رضع الناموس في حليب الأمّ؟!

– الناموس؟

– الأبناء قَدَر الآباء. في الأبناء هلاك الآباء!

– هل قال الناموس هذا حقّاً؟

– هل يملك أبناء الناموس حيلة لدفع أمر أقرّته الأجيال في الناموس؟

– أسرّ لي بأمر آخر...

– أخبر!

– قال لي إنه لم يدفع بك بعيداً خوفاً منك على نفسه، ولكن لخوفه عليّ منك...

– حقّاً؟

– قال إنك...

– ماذا قال؟

– قال إنّك... قال إنّك... مسخ!

– مسخ؟

– قال... قال ما هو أسوأ من المسخ...

– قل يا شقي؟

– قال إنك لن تقف عند حدّ!

- لن أقف عند حدّ؟

- قال لي ذلك مراراً، ولكن القول في لسانه كان فظيعاً، فكان بدني يضطرب بالقشعريرة كلما أسمعني التحذير.

- الإنسان لا بدّ أن يقول كلمته التي يدافع بها عن نفسه، الإنسان لا بدّ أن يقول، ويقول، ويقول، قبل حلول الميعاد الوحيد الذي يفقد فيه القدرة على القول إلى الأبد.

- ولكنك لا تستطيع أن تتخيّل كم هو فظيع أن يُسمع ذلك القول من فمه!

- وهل تتخيّل أني لا أستطيع أن أتخيّل يا شقي؟

- ما قاله لم يكن قولاً...

- ها أنت تقفز مرّة أخرى إلى مغالاة هي في سجيّتك طبع كريه.

- لم يكن قولاً ما قال...

- ماذا تريد أن تقول؟ ألا تدري أنه لم يقل ما قال إلاّ ليخفيك عنّي كما أخفاك دائماً؟ ألا تدري أنّه لم يقل ما قال إلاّ ليخيفك منّي كما أخافك دائماً؟

- ذلك لم يكن قولاً، ذلك كان...

- مهلاً، مهلاً. لو كنتُ مكانه لقلت القول نفسه. لو كنتُ مكانه لقلتُ قولاً أنكر من قوله. بل لو كنتَ أنت مكانه لقلتَ القول الأنكر!

- لن تستطيع أن تقنعني. لن تستطيع أن تثنيني. لن تستطيع أن تزعزع يقيني. ما قاله لم يكن قولاً. ما قاله كان... نبوءة!

- نبوءة؟!

- ما قاله هو النبوءة!

- وهل صدّقته؟

- لم أصدّقه، ولكني صدّقت النبوءة. لم تطعني نفسي أن أصدّقه، ولكن نفسي لم تطعني لأكذّب النبوءة!

- ولكن... ماذا أراد أن يقول بالنبوءة المزعومة؟ ماذا تريد أن تقول بهذا الهراء؟

لم يجب.

احتجب عنّي بالصمت، فبصرت كيف تمادى في مقلتيه الألق.

٨

آزجر... أرض الأبقار والثيران والأنعام البريّة التي اندثرت من برّ الصحراء منذ آلاف الأعوام، ولم يتخلّف منها غير أجرامها المنحوتة في صلد الجبال وجدران المغاور كما اندثر أربابها الذين أذلّوها واستأنسوها، ولم يبق منهم سوى ظلالهم المزبورة على جلاميد الصخور، إلى جوار الأنعام: عاريةً، غامضةً، هزيلة، شبيهةً بأشباح الجنّ، أو هياكل الأموات. في حيطان الكهوف الملساء تتزاحم قطعان الأبقار حفراً محيّراً في جرم الصّلد؛ تتلبّس الجدران من الحضيض، وترتقي الأنصاب من كل الأجناب، فلا تكتفي بالاستيلاء على الأركان وحسب، ولكنها تكتسح السقوف الصارمة، المعلّقة فوق الرؤوس بعيداً، فتبهت الأحافير بسبب الارتفاع، وبسبب انحسار أضواء المداخل وعجزها في الوصول إلى خفايا المغاور العليا، فلا يملك المشاهد إلاّ أن يتساءل عن الحيلة التي بلغ بها المبدعون الأوائل تلك السقوف النائية لينقشوا على

صلدها وصاياهم، في حين لا بدّ أن يستولي العجب على الأغيار الذين يرون أن زرع النقش في قلب الحجر أيسر من ابتداع الحيلة التي تستطيع أن تحفظ النقش من التلف زماناً طويلاً. وبرغم انقراض السلالات، وبرغم فناء الأجيال وراء الأجيال، وبرغم تبخّر المياه في بحيرات «واو الكبرى»، وبرغم فرار المياه من الأنهار، وبرغم رحيل البستان، بنباته، وغاباته، وأثماره، من أرض البستان، وبرغم هجرة الوطن الأقدم من ربوع الوطن القديم، وتحوّل الوطن القديم إلى ما أطلقت عليه الأجيال في ما بعد إسم «الصحراء»، إلاّ أن النقش في الجدران، الوصيّة المحفورة في صدور المغاور، رسالة الأسلاف المنقوشة في قلب الحجر، لم تضع، ولم تستسلم، ولم تتبدّد، برغم الرياح، برغم غزوات الأهوية المحمّلة بالتربان والحصباء والأملاح، برغم تلك النوايا المميتة التي تبيّتها الأزمان، وتبيد بسرّها الأجيال والأجيال والأجيال، وتنال بخفاياها حتى الأجبال المكابرة فتركع وتتضعضع وتتفتّت لتتحوّل غباراً تنثره الريح في الهواء. كلّ ما استطاع هذا الغول (المسمّى في لغة الأم زماناً) أن يفعله بالوصيّة هو تشويش الوشم هنا، أو إزالة بصم هناك، أو إفناء هذا اللون أو ذاك. استطاع الغول أيضاً أن يستر بعض القطعان بسبوب رمادي معتم، فتبدّت القطعان المسربلة بغلالات السبائب، أكثر غموضاً، وجاذبية، وفتنة؛ ولكنّ الأجرام تشبّثت بصدور الصخور بعناد بطولي، وغالبت الآماد التي غلبت كل شيء حولها، فقدّمت، بوفائها، للأجيال درساً يقول أن وصيّة الإنسان ليست جزءاً من الإنسان، وصيّة الإنسان ليست طرفاً في تكوين الإنسان، وصيّة الإنسان ليست جرماً منفصلاً عن جرم الإنسان، ولكن وصيّة الإنسان هي الإنسان نفسه. لهذه العلّة تتلبّس وصيّة الإنسان الحجر فلا تصير طرفاً في تكوين الحجر فحسب، ولكنها تنقلب جانباً من أجناب الحجر لا يختلف عن بقية الحجر، تنقلب صلداً لا يتنكّر

لجرم الحجر، ولا يتنحّى عن جرم الحجر، لأنه هو الحجر، بل هو الطرف الأقوى في الحجر، لأنه السرّ الذي يحمل الحياة إلى الحجر، السرّ الذي يحمل رسالة الحجر، فيحيي الحجر الذي لم يكن قبل البصمة سوى جلمود أصمّ، أو جدار أخرس، أو قطعة صلد ميّت. يحيي السرّ الحجر فيبقى حتى بعد زوال الحجر، لأن الحجر، جرم ككل الأجرام، ليس معصوماً من ضرب الزمان، فيبيد، أو يتفتّت، ولا بدّ أن يهلك بعد زمان، ولكن الوصيّة المبثوثة في أحشائه لا تتزعزع، ولا تتقشّع، فترث الحجر، فيخلد بخلودها الحجر، لأنها، كأيّ جرم حيّ، داهية تمتلك الحيلة كي تتنقّل، تمتلك القدرة الخفيّة لإحياء نفسها من فتات حجر زال، لتحلّ ضيفاً في صدر حجر آخر، في جدار غار آخر، في جبال وطن آخر، تموت هنا، لتولد هناك، تهرم هنا لتتجدّد هناك، تستبدل حجراً لم يكن لها إلاّ لباساً، كما تستبدل الحيّة قشارها، لتلبس بدن حجر آخر، لأن الحجر لا يسع الوصيّة التي يحملها، ولكن الوصيّة هي التي تسع الحجر، لأن الحجر لا يحمل الوصيّة التي يُظنّ أن الحجر يحملها، ولكن الوصيّة هي التي تحمل الحجر، لأن الوصيّة التي نفثتها روح السلف الظامئ إلى الأبدية لم تكن لتوجد أصلاً لو لم تكن موجّهة إلى روح أخرى، روح الخلف الذي عاهد نفسه أن ينقذها من التلف، فيلملم رفاتها من غبار الحجر، يلتقطها من الأرض رميماً، ويتبنّاها، وينفخ فيها من روحه، ويرسلها إلى خلف آخر، حفراً على صلد حجر آخر، والحجر الآخر يخلعها في جرم حجر آخر. لهذا السبب تعشّق الحجر الوصايا كما تعشّقت الوصايا الحجر، لأن الحجر، كما يُروى، حكيم اكتشف أن الوصايا، للحجارة، ليست أسماء وحسب، ولكن الوصايا، للحجارة، حياة منذ تلقّى السرّ مستوراً في وصيّة السلف لسليله الخلف، فصارت الوصيّة في عنق الحجر تميمة أولى، ونبوءة الأبد.

٩

مطاردة الطلسم تكرّرت. التفتيش في طلب تفسير اللغز استمرّ. مساءلات الجدار الحجري تواصلت، بل اشتعلت واشتدّت وتفاقمت. استنزل صاحب الحنين في جلاميد الحجارة أبداناً أخرى. بثّ في صميم الصلد أجراماً أخرى. زرع حيطان الأنصاب وصروح المغاور بظلال المخلوقات التي تدبّ على أربع. زرع كلّ الأجبال بسؤاله الموجع، وطارد الصوامع الجبلية، وكلّ صنم منتصب في كل الصحراء الوسطى، ولم يتوقّف عن الترويج للنداء إلاّ بعد أن طبع «تاسيلي» و«تادرارت» و«مساك صطفت» بسيماء الرسالة. ويُقال إنه لم يهجع، ولم يلتقط أنفاساً، ولم يكفّ عن النقش إلاّ في اليوم الذي تلقّى فيه ذلك الإيماء المبهم الذي دفعه لاستنزال جرم جديد في قلب الحجر. جرم لا يدبّ على أربع كبقيّة الدواب. جرم ينتصب إلى أعلى في كبرياء الأنصاب الحجرية كأنه يريد أن يفرّ من الأرض ويبلغ بقامته

السماء. جرم يختلف عن كل الأجرام لا في التكوين وحسب، ولكن في المسلك أيضاً. جرم يبدو أهشّ الأجرام، ولكنّه بالدهاء تفوّق على كلّ الأجرام. جرم مريب وغامض لأنه يخفي في جرمه أمراً لا تخفيه بقيّة الأجرام. أصاب جرم سليل الحنين زلزال، واحترق بأجناس الحمّى، وحاول أن يطفئ في جوفه البلبال بالركض بين مخلوقاته بحثاً عن تفسير للإلهام. توجّع وتفجّع، ولو لم يهرع لنجدته شرر الإيماء لهلك ولانقطعت سلالته المجيدة من أرض الصحراء كلّها. اندفع سليل الحنين إلى الصخرة، ونحت أوّل رمز في الأبجديّة الصحراويّة القديمة. نحت الرمز الذي أنجب الرموز. نحت الحرف الذي ابتدع الحروف. نحت العلامة العجيبة التي أوجدت الناموس وكلّ النواميس. نحت الإيماء المذهل الذي انبثقت من بطنه الأجنّة، فصار أوّل مفتاح للغز إسمه الإنسان. حفر الإنسان في الصلد إسمه فوُلد من المجهول الإنسان. زبر الإنسان بيد الإنسان على الحجر المقدّس القول الفصل المبثوث في أقدم وأنبل قول قيل في تاريخ كائنات الصحراء عندما قال نبوءته الأولى التي نجدها منحوتة إلى جوار كل رسم في الصحراء الكبرى: «آوا نَكْ، مندام. آوا نَكْ آوادم»(*) فتزعزعت الصحراء الكبرى بالزلزال، وردّدت النداء الأجبال، وانحنت السماوات إجلالاً للنبوءة، وركعت الكائنات عند قدمي المخلوق المنتصب برأسه إلى أعلى باستعلاء، لأنّ المخلوق أدرك بشرر الوحي المجهول، أنه مخلوق معجون من طينة أخرى تختلف عن سلالات الثيران والأبقار والمخلوقات الصحراويّة الأخرى التي أطلق عليها في ما بعد إسم «الحيوان». عرف الإنسان في ذلك اليوم أنه إنسان وليس بحيوان،

(*) «هذا أنا فلان. هذا أنا إنسان».

فولد نفسه الإنسان، ولم يكن المسكين يعلم أنّ الانفصام الأبدي سيصير، في رقبته، شقاوةً، ظمأً، حنيناً، لعنةً أبديّة.

١٠

قبل أن ينقلب الأمر، قبل أن يهرم الميلاد، قبل أن تتحوّل النبوءة لعنة، اكتشف المخلوق في الانفصام امتيازاً، والإحساس بالامتياز أشعل في قلب المخلوق روح التفوّق في العشيّة نفسها التي تلجلج فيها لسانه باسم «الإنسان»، فدوّن رمز الإلهام في لوح الحجارة إلى جوار قطيع الثيران. روح التفوّق أعطت المخلوق حقّاً لم يعطه لنفسه قبل ذلك التاريخ.

التفوّق ساق كائنات الأوطان إلى يديّ المخلوق، ولم يمضِ زمن طويل حتى امتلك الصحراء كلّها لأن السلطان الذي امتلكهَ على المخلوقات سلطان مستعار من زند الخفاء الذي قدح في قلبه شرر النبوءة الرهيبة التي ساقت إلى يديه الصحراء، ولكنها ساقت عنه نفسه إلى مكان أبعد من الصحراء، وأبعد من كل الأبعاد، وكان عليه أن يدفع، على مدى المسيرة التالية، كلّ ما امتلك مقابل أن يفلح في الاهتداء إلى احتيال يخرجه من متاهة منفى

صار في عنقه قدراً خالداً، فأدرك، بعد فوات الأوان، أنه وقع في الأسر يوم تمرّد على قدره، وعاند الخفاء بالسؤال، فعرف ما لا يجب أن يعرف، وأخذ على عاتقه عبئاً لا حيلة له في حمله. ابتدأ المكابر يحفر في وطن الصحراء سيرة أطلقت عليها الأجيال التالية اسم «الامتلاك»، فوضع بالسيرة سيرة أخرى أطلقت عليها الأجيال إسم «العبوديّة». لم يستعبد المخلوق المكابر المخلوقات التي امتلكها كما ظنّ في بداية الأمر، ولكنّه استعبد المخلوق نفسه بالمخلوقات التي استعبدها؛ وكان مقدّراً أن تجري في الوديان السيول كثيراً قبل أن يدرك المكابر خطيئته، ويرفع يده بالمدية ليميت المخلوقات، ويهلك كلّ ما امتلك، لأنّ المخلوق الذي سمّى نفسه، بالنبوءة، إنساناً، يوماً، لا بدّ أن يهلك ما امتلك إذا أراد أن يستعيد سليقته الأولى، إذا أراد أن يعود إلى رحم الصحراء، إذا أراد أن يستردّ الوطن الضائع، إذا أراد أن يتحرّر: من الذاكرة، من الإلهام، من ما لا يجب أن يُعرف، من الإنفصام، من الامتلاك، فاختار، في أحد الأيام، العبور قدراً.

لم يختر هذا المصير الموجع بيسر، ولا في زمن قصير، ولكن الخيار الأخير سبقته سيرة الامتلاك التي بدأت بإذلال مخلوقات كانت يوماً تلتحم مع الإنسان في بدن واحد في ذلك التاريخ المجيد الذي سبق اليوم المشؤوم الذي عرف فيه المخلوق المكابر نفسه، وجرّ، بمعرفته لنفسه، نفسه عن الوطن بعيداً ليتسكّع في خلاء إسمه المنفى. احتكم إلى القوّة، وأخضع بالغصب دواب كانت له يوماً أرباباً. أبدع أشراكاً ليوقع بها، ونحت من الحجارة مديةً لينحرها بها، وسفح دمّ أوّل قربان عند أعتاب الصلد الحجري الذي شهد ميلاد النبوءة التي دقّت إسفين الفراق بينه وبين كائنات الصحراء، فصار الإنسان، لأوّل مرّة، عدوّاً للكائنات، بعد أن كان مع الكائنات جرماً واحداً. سلّم الإنسان بعدها أمره للسان، فكلّم الصحراء بلغة الأسماء: أطلق على الوطن إسم

«آزجر»(*) تيمّناً بسلالة الأرباب التي انقلبت بين يديه قرباناً، وأطلق على غار الرؤيا إسم «إيمي-ن-يرو» أو «إيمي-ن-هرو»(**) فانتحل الوادي الإسم كلّه في جيل آخر، ثم صار الإسم غنيمة المنطقة كلّها لأن أجيالاً تلت ارتأت أن الإسم أعظم شأناً من أن تستأثر به مغاور، أو تحتكره أودية، فحقّ له أن يغدو إسماً للوطن الصحراوي كلّه. ويُروى أن الإسم ما لبث أن بسط نفوذه على الصحراء الوسطى كلّها، وطغى حتى على إسم «آزجر» الذي سبقه، وكان على تربانه أن يزدرد أجيالاً كثيرة جداً قبل أن ينحسر ويرتدّ على عقبيه مرّة أخرى ليقتصر على وادي «إميهرو» الذي ما زال يحمله حتى اليوم. من هذا النصب المقدّس انطلق السلف للاستيلاء. من هذا الركن الذي شهد ميلاد الرؤيا بدأت المسيرة الخطرة التي لم تتوقّف حتى هذا اليوم. من هذا الربع انطلقت الرحلة إلى أركان الصحراء الأربعة، حاملة على ظهرها رسالة الإنسان، لتبتني في كلّ مكان مجد الإنسان الذي وُلد بالرؤيا التي فصلته عن الحيوان، فاغترب عن وطنه مرتحلاً في الأركان طلباً للأوطان.

فقد الوطن في قلبه، فبحث عن وطنه في بسابس الخلاء. أشبع سبيل التيه بصماً متوهّماً أنه يصنع لإسم «الإنسان» مجداً. بعثر أينما حلّ أثراً كما تبعثر بعائر القافلة في الطريق بعراً، ولكن فاته أن الوطن الذي فقدناه في القلب هو الوطن الوحيد الذي لا نستعيده في المسافة، ولا يمكننا أن نشيّد بنيانه بأيدينا. ولكن ذلك الزمان البعيد كان قد شهد ابتداء العبور، لأنّ إنسان ذلك الزمان كان ما زال يجهل المطاف الذي ستنتهي إليه الرحلة. هذا الجهل هو الذي أنعم عليه بالجسارة التي مكنته من الاقتحام وركوب المجهول. أوّل

(*) آزجر: الثيران، الأبقار.

(**) إيمي-ن-يرو، إيمي-ن-هرو: مدخل القديم، أو مدخل الإله هرو.

ما فعله إنسان الزمان هو القيام بتنصيب نفسه على الحرم كاهناً. الكاهن هو الذي أذلّ الثيران ونحرها قرباناً للرؤيا التي زلزلت أركان الصحراء وأنجبت من رحم المجهول نبأ الانفصال. ثم اعتصم الكاهن بالصلد الجبلي المهيب، وسمّى الغار حرماً، وهجع هناك زمناً، ثم أعلن للقوم أن إسم «الإنسان» يعطيهم الحقّ في امتلاك كلّ ما هو ليس بـ «إنسان»، لأنه إسم ليس ككلّ الأسماء. إسم سبق الأسماء. إسم أوجد الأسماء يوم اختاره الخفاء للرؤيا فأنزل في قلبه نبوءة السماء. بدأت حملة الامتلاك منذ ذلك اليوم. أرسل الكاهن رسلاً إلى كلّ الأقوام، وجمع الأشتات في أمم. التأمت البطون في عشائر، والتأمت العشائر في قبائل، والتأمت القبائل في أمم، فاشتعلت الحمّى وبدأ السباق. انتشرت القبائل حول ضفاف البحيرة الكبرى (التي يحتلّ بحر الرمال العظيم موقعها اليوم)، واحتلّت الأوطان التي تمتدّ في دائرة من دوائر الأساطير، فتشمل تخوم الجبال الزرق في الشمال، وتتواصل في سلسلة «تاسيلي» غرباً، وتضمّ «تادرارت» و«مساك صطفت» في الجنوب، وتمضي لتلتفّ في قوس هائل في الأجبال التي تطوّق وادي الآجال في أقصى الشرق. ولكن «أميهرو» أو «إيمي-ن-يرو» احتلّ من الوطن قلبه، فكان للمُلك أسّاً لا من باب إجلال الموقع الذي استنزل الرؤيا وحسب، ولكن من باب الوفاء بالعهد، واستبقاء للباب المفتوح على سماء لم تبخل على القوم بالأنباء. بهذه الأنباء استولى الكاهن القديم على كل الصحراء، فدانت له الأقوام، وسارت بمشيئته الأمم، وطرحت القبائل تحت قدميه الكنوز تقرّباً للمعبد واستعطافاً لربّ المعبد. بدهاء الكاهن القديم قامت حول شطآن البحيرة الكبرى مملكة «واو الكبرى» التي أضاعتها الأقوام لعلّة مجهولة فضاعوا بضياعها للمرّة الثانية. وكان عليهم أن يضيعوا للمرّة الثالثة يوم أضاعوا ذلك الناموس الرهيب الذي سنّه لهم كهنة «أميهرو» فصار شرعاً مجيداً اهتدت به

«واو» طوال وجودها، ولكنه ضاع، أيضاً، بضياعها، فأضاع، بضياعه، سرّ تلك المملكة المجهولة، ولم يبق منه إلاّ تلك الأحكام المبتسرة التي تناقلتها أم الصحراء من جيل إلى جيل. وتروي سير الأوّلين أن الأم تفرّقت بعد أن أحاقت بها لعنة القبْلي(*)، وفرّت إلى أطراف الصحراء الأربعة حاملة رسالة «هرو» في قلبها، وما لبثت هذه الرسالة أن نبتت في أتربة أوطان أخرى، وانتعشت على ضفاف شطآن أخرى، ولكنها لم تتنكّر للأرض التي استنزلتها، فكان رسل الممالك الجديدة يرتدّون إلى الحرم ليستعيروا منه إلهاماً يذهبون به بعيداً ليعينهم على الرفع من شأن أوطانهم حتى ذاع صيت بعض تلك الأوطان وحقّقت أمجاداً لم يحقّقها الوطن الأمّ.

ولم تكتف الأم بارتياد الحرم للإيفاء بالنذور، ولكنّها أقامت لـ «هرو» أضرحة في كلّ الأوطان الجديدة، وأقرّ كهنتها ناموساً يقضي بدفن الأموات بوجوه مصوّبة نحو الحرم الأمّ؛ فكانت أم الشرق توجّه موتاها نحو الغرب، في حين دأبت الأم التي استوطنت بسابس الغرب على توجيه أمواتها نحو الشرق. فهل أدرك مولاي الآن سرّ انتقالي للحرم الأقدم؟ هل أذيع سرّي وأخبر المولى أنّ في عروق المخلوق الذي يتربّع الآن بين يديه يجري دم ذلك المخلوق الذي تلقّى النبوءة يوماً فنصّب نفسه على الصحراء كاهناً؟ أم أنّ مولاي ظنّ أنّ عرق الظعون هو الذي غلب فاستبدلتُ الوطن الذي يبيد بالاستعمال، كما تبيد الأثواب، لأن النُجعة من مكان إلى مكان هو ما يحيي فينا الوطن الذي يميته فينا المقام؟

فليعلم مولاي «إيكدي» إذن، أنّي لم أختطف شرخي، ولم أستبدل نجعي إلاّ تلبية لنداء الوطن الذي لا بدّ أن يستيقظ في القلب يوماً ليوسوس لنا قائلاً أن الإنسان عندما يستشعر دنوّ الموت

(*) القِبْلي: ريح الجنوب.

لا مفرّ له إلا أن يستنجد بتربان الوطن الذي سيهبه نفسه.

خُلقنا، يا مولاي، لنحيا في كل الأوطان، ولكننا لم نخلق إلا لنموت في وطن ليس ككلّ الأوطان.

١١

- ها أنت تفسد في يوم ما أصلحناه في أعوام!

هذا ما قلته له يوم قرأت في عينيه الاعتراف. ولكنّ الشقيّ لم يكن ليعترف لو لم أحتل عليه لأكتشف سرّه. وإذا كان اكتشاف العلاقة مع المرأة ليس أمراً عسيراً (لأنّ القبائل تقول إن الإنسان يستطيع أن يُخفي عن الأغيار كلّ شيء، ولكنّه لا يستطيع أن يخفي العلاقة مع المرأة) إلاّ أنّي لا أستطيع أن أجزم يقيناً بالعهد الذي بدأت فيه العلاقة، لأنّ استرخاء الزمان الذي استغرقه انقطاعنا في الوطن خذلني فنسيت وجود هذا المخلوق تماماً، بل وصدّقت الوسواس الذي أسرّ لي باختفاء المرأة من الصحراء كما اختفت من أرضها الأنهار والبحيرات والحيوانات التي حدّثنا الأسلاف بوجودها في رسوم الكهوف. ولم يكن «آزجر» ليصير لي نعيماً أصلاً لو لم يخلُ من هذه الملّة الكريهة التي لم أخف اشمئزازي من كيدها منذ وجدت نفسي في الصحراء، ومنذَ

وجدتها إلى جواري في الصحراء، كأنّها لم تخلق إلا لتنتهك حرم الصحراء، ولتبلبل بلؤمها عشّاق الصحراء. وإذا كنت قد نسيت الزمن الذي استغرقته صحبتنا، فإنّي سأضمّ نفسي إلى قافلة ناكري الإحسان إذا سمحت لنفسي بنسيان زمان وهب لي سكينة كتلك السكينة التي عشتها في تلك الأيام. كنّا نقضي النهار كلّه معاً، وشطراً من الليل. نهشُّ الإبل إلى المراعي مشياً على الأقدام، أو نروّض الجدعان لنعدّها للمطايا، أو نذهب لجلب زادنا من المياه من آبار لا تبعد كثيراً، أو نسوق البعائر لنرد بها الماء، أو ننهمك في فتل الانساع أو حبك القيود من لفائف المسد، أو نرتق الثياب أو غرائر التمور أو سروج المهاري أو أكياس الزاد. وقد نترافق للبحث عن الضباب أو التفتيش في الشقوق الجبلية عن أنفس الأعشاب، أو لجلب الأحطاب من الأودية البعيدة. وكثيراً ما نسرح في السفوح لنكتشف في الكهوف رسوم الثيران، أو ظلال المخلوقات التي لم نكتشفها من قبل، وربما لم يكتشفها أحد قبلنا. فإذا انتصف النهار، وحان ميعاد القيلولة، هجعنا في المغاور، أو تحت ظلال الطلح. قبل أن نهجع نستخرج من مخلاة لا تفارقنا حبات التمر أو قطع الخبز المتبقية من عشاء البارحة لنتناول الغداء. فإذا حلّ المغيب نزلنا المراعي لتجميع البعائر وإعادتها إلى المربد. ثم نشرع في إشعال النار لإعداد طعام العشاء. نتحلّق حول النار طويلاً، ولا نكفّ عن إمدادها بالحطب إلاّ في الليالي التي يغزونا فيها القمر. نولي ظهورنا للمواقد، ونستقبل بوجوهنا الضياء الذي مجّدته الأجيال في ملاحم المديح، وخلّدته شاعرات القبائل في أغاني الحنين. نسكن بجلال، ونكتم في صدورنا الأنفاس، ونبدو، في وجومنا، كصنمين متجاورين، أو كجنّيين قرّرا أن يخونا سجيّتهما ويخرجا من خفائهما إلى العلن. يدوم السكون طويلاً. والسكون إذا دام طويلاً فلا بدّ أن يُسمع مريده لحناً فريداً. لا يولد اللحن الفريد فلتةً، ولكنّه يتمخّض عن ائتلاف السكون في

الصحراء بميلاد سنا القمر في السماء، فيلتقطه أحدنا، ويغنّيه بصدره، ثم ينزلق به فيروّضه بحلقومه، ولكنه لا يندفع ليتلقّفه اللسان إلاّ بعد أن يستقيم، وينتظم، ويكتمل في نسق من تلك الأنساق التي عدّها أهل الغناء كنوزاً أبديّة، لأنّها تنزّلت في قلوب الأجيال إلهاماً، فصبّ فيها العشّاق والشعراء وصحبان الحنين أشعار العشق ومواويل الشجن منذ أقدم الأزمان. نغنّي كنزنا طويلاً، ونكتشف بالغناء أنّنا لا نتكلّم. نكتشف أنّنا لا نتبادل الكلم لا آناء الليل ولا أطراف النهار، لأن ناموس العشق حتّم على العاشق أن يخاطب المعشوق بالقلب لا بالكلم، لأنّ اللسان، في عرف القبائل، مفسدة للفعل قبل أن يكون مفسدة للقول، وها نحن نحتال على اللسان، فنغنّي. نغنّي لنكتشف أنّنا لا نتكلّم، نغنّي لنكتشف أنّنا نعشق، نغنّي لنكتشف أنّنا نحيا برغم أننا لا نتكلّم. هذا ما اكتشفته في نفسي، وهذا أيضاً ما اكتشفته في عيني القرين، في مسلك القرين، في غناء القرين. ولكنّ القرين كان يقطع الأغنية ليشقى. القرين يختنق باللحن دائماً، ويبتلع صوته، ثم يفزّ ليدفن شقاءه في مكان ما، ولا يعود من رحلته إلاّ بعد أن أكون قد استسلمتُ لهجعة الليل. ثم... بدأ يبتعد. لم يبتعد بين يوم وليلة، ولكنّه ابتعد على مدى أعوام. ظلّ يتنحّى ويتفلّت وينأى حتى اعتلى آكام البعد فأيقنت بعد فوات الأوان أنه يتأهّب للفرار. ظننت أنّه لم يغب عن بصري طوال تلك الأعوام، ولكنّ فراستي خذلتني، لأنّي نسيت أنّ القرين رجل، والرجل لا يُشدّ بأغلال ولا بسلاسل ولا حتى بقمقم إذا اشتاق لذلك المخلوق الذي أسمته القبائل إمرأة. أجل، أجل. أستطيع أن أراهن برأسي إن لم يكن سرّ تسلّل الشقيّ امرأة. وقد وجدت مبرّراً ليقيني عندما استعدت سيرة الزمان المفقود. تذكّرت في الحال كيف كنت أستبقيه مع الإبل في المرّات التي ينفذ فيها الزاد فأضطرّ للرحيل إلى طرق القوافل لأقايض الزاد بالجدعان أو الحيران أو غرائر الوبر. قد

أفلح في قضاء حاجتي في يومين إذا حالفني الحظ وأرسل لملاقاتي أصحاب التجارة في الحين، ولكن الرحلة قد تستغرق عشرة أيام، وفي بعض الأحيان تتجاوز هذا الحدّ في المواسم التي تشتدّ فيها الرياح الجنوبية، فتتعرقل حركة القوافل لزمن طويل. فهل انتهز الشقيّ فرصة غيابي وفتّش عن جنّيّة ليرهن بين يديها قلبه؟ هل يكفي هذا النزر اليسير من الوقت للوثوب في أحضان المرأة؟ ألا يقول دهاة القبائل أن وقوع الرجل بين أحضان المرأة لا يحتاج إلى الأزمنة ولا إلى الأشهر ولا إلى الأيام، ولكن أمره رهين غمضة؟ ولكن ... ولكن أين وجد الجنّي جنّيّة تسلبه عقله في هذه السباسب البلقع التي هجرتها الأقوام منذ آلاف السنين؟ أين يستطيع الأبله أن يستخرج في «آزجر» جنّيّة من سلالات الأنس؟ أم أن اللئيمة التي استدرجته لا تنتمي إلى سلالة الإنسان، ولكنّها جنّيّة حقيقيّة تنكّرت للمسكين في جرم إنسيّة كما اعتادت حسان الخفاء أن تفعل عندما تنتوي الاستيلاء على رجال الإنس؟

لم أكشف له عن الرؤيا، ولم أسرّ له بنواياي. قرّرت أن أبقي على المسافة التي اختارها لتكون بيني وبينه حداً. قرّرت أن أدعه يتنقّل على مدى البصر، كلما خرجنا لمطاردة البعائر في المراعي. تركته يقضي القيلولة في مغاور تنأى كثيراً عن المغاور التي اعتدنا أن ننزلها كلّما اشتدّ الهجير. تركته ينام في أبعد عراء، تحت أبعد طلحة، أو أنأى جلمود عندما يحين ميعاد هجعة الليل. تركته لأنّي قرّرت أن ألتجئ إلى الحيلة وأستغفله كما استغفلني. تركته يمضي بعيداً جداً دون أن يتغيّب عن بصري. ترصّدته من أبعد الأركان، وظننت أني أفلحت في شراء طمأنينته، ولكن اللئيم لم يطمئنّ أبداً. بل تعمّد أن يتراجع في مسيرة فراره، وبدأ يقترب منّي ويحاول في كلّ مرّة أن يخنق المسافة بيننا ليخفي الأثر ويشعرني ببطلان الفرار، فهل استشعر الخطر وقرّر أن يوغل في إخفاء كنزه؟ أقلعت عن التظاهر، وقرّرت أن أستبدل الموقع.

استوقفته يوماً وواجهته بالقول: «أعرف أنّ الإنسان الذي لا يستطيع أن يبتعد عن الإنسان، لا يستطيع أن يحتمل قرب الإنسان أيضاً. أعرف أن الإنسان الذي لا يستطيع أن يحتمل الابتعاد عن الإنسان، لا يستطيع أن يحتمل إلى جواره وجود الإنسان حتى لو كان هذا الإنسان أباً أو أمّاً أو أخاً. فهل أخطئ عندما آذن لك الآن بالابتعاد قليلا؟». حدّق في عينيّ بارتياب. حدّق في عينيّ بأشدّ ارتياب. من فمه سمعت فحيحاً، حشرجة، غمغمةً في سؤال مبتسر: «ماذا تنوي أن تقول؟». ابتسمت. ابتسمت لأقطع في نفسه دابر الشكوك. ابتسمت لأنزل فيه طمأنينة. ابتسمت ليصدّقني. قلت له: «لا تتوهّم أني أفعل ذلك إرضاء لك، لأنّي أعرف أنّك تعرف أنّي لم أكلف نفسي يوماً عناء إرضاء الأغيار. وقد رأيت أن نفترق تحصيناً لنا من بلوى الالتحاق، لأنّ الخلق لا يتباعدون إلاّ ليلتقوا، ولا يولدون إن لم يفترقوا، ولا يحيون إن لم يشتاقوا، فهل صدّقتني؟». لم يصدّق. ولكنّي لم أمهله. شددته من منكبيه كما اعتدت أن أشدّه زمان الصبّا وأكملت: «لن نتباعد كثيراً. ستنزل بقطيع من الإبل في الوادي المجاور. وسأستقطع من القطيع إبلاً تسليني في خلوتي في الوادي الآخر. ولكنّنا لن نقطع، لأنّنا سنتزاور من حين لآخر...». لم أنتظره. ولّيته ظهري وانطلقت. استقطعت من القطيع نصيبي، وتركت له نصيباً. استقطعت من الزاد نصيبي، وتركت له نصيباً. استقطعت من قرب الماء نصيبي، وتركت له نصيباً. حمّلت متاعي على جمالي وانطلقت الى وادي «آلّون»، وتركته في سهول «تانوت ملّت» وحيداً. لقد ابتعدت حقّاً، ونزلت وادياً تضيع فيه القبائل، وفاء بالوعد الذي تكلّم به لساني، ولكنّي لم أصمد في وجه المحنة ليلة واحدة. بلى، بلى. ثبّت السرج على المهري في نفس المساء الذي نزلت فيه الوادي الرهيب، وانطلقت بالنجيب على عقبي. بلغت الموقع بعد منتصف الليل. ترجّلت عن الجمل وشددت لجامه إلى

مللحة، وتسلّلت في ضوء قمر شاحب أخذ منه الغروب والانمحاق. مشيت راجلاً مسافة طويلة. بلغت مربد الإبل. حاولت أن أتبيّن الأثر على التربان الرملي اللميس. لم أعثر له على أثر في الأرض المجاورة لمربد الإبل. انحرفت شرقاً. قصدت الصروح الجبليّة التي اعتدنا أن نقضي في أجوافها قيلولتنا كلما اشتدّ الحرّ، أو نحتمي بها في فصل الشتاء فراراً من شرّ القرّ. ولكنّي لم أقطع في الطريق الى الأجبل مسافة طويلة، لأنّ الأنسام الليليّة التي حملت لي رائحة النار كانت أنفاساً شماليّة. انحرفت شمالاً. سرت في أرض رخوة تعتليها أكداس الأضرحة القديمة، وكسور الأواني الحجريّة التي تخلّفت عن أقوام استوطنت الوطن يوماً، ولكنّها بادت واندثرت لأنّ تراب الوطن ابتلعها كما ابتلع أقواماً سلفت وأقواماً أخرى خلفت. اشتدّت الرائحة فتملّكتني بلبلة. توقّفت لأتصنّت، ولكنّ السكون الرهيب ضجّ في أذني بصخبه المجهول، فانطلقت. تسلّقت رابية وحيدة، وعندما أشرفت على سفحها المضادّ وجدته يتربّع في حضيضها: النار خابئة، ولكنّ قطع الجمر ما زالت تتلألأ، يوليني ظهره متقرفصاً إلى جوارها. يشيّع رأسه نحو الآفاق الشماليّة المغمورة بالضياء الشحيح، ثم يعود فيستنزله أرضاً. كان وحيداً، معتزلاً، مهجوراً. بلى. ساعتها فقط أدركت كم كان هذا المخلوق وحيداً. كم كان مهجوراً، كم كان معزولاً. بلى، بلى. كان وحيداً إلى الأبد، معزولاً الى الأبد، مهجوراً الى الأبد. فكيف لم أدرك هذا من قبل؟ كيف فاتني أن قريني ليس قريني، ولا يمكن أن يكون قريني، لأنّه مخلوق معزول عنّي منذ ذلك اليوم الذي انفصل عنّي، ووُلد في جرم آخر معزول عن جرمي؟ كيف ظننت أنّي أستطيع أن أستردّه بكفاحي ما دمت على يقين من أنّي لن أستطيع أن أستعير بدنه، ولا يستطيع هو أن يستعير بدني؟ وكيف ظننت أنّي أستطيع أن أناله بالانقطاع به بعيداً عن الناس ما دامت سجيّة

الإنسان تقود الإنسان بعيداً عن أخيه الإنسان، ولكنّه لا يلبث أن يرتدّ الى معشر الإنسان لأنّ الإنسان لا يستطيع أن يعتزل الإنسان، ولا يستطيع أيضاً أن يحيا بجوار الإنسان؟ تحوّل الإشفاق في بلعومي غصّة قاسية، فتمنّيت أن أراه سعيداً. تمنّيت أن يحدث أيّ شيء يستطيع أن يضع حدّاً لعزلته. وجدت في نفسي الشجاعة لأحتمل أيّ محنة تستطيع أن تضع حدّاً لمحنته. وجدت في نفسي الاستعداد لأن أضحي بكلّ شيء في سبيل ألاّ أراه مهجوراً على ذلك النحو الذي رأيته فيه ليلتها. أدركت فلتةً أنّي لم أكن له توأماً، ولا قريناً، ولا صاحباً لأنّي لم أملك يوماً ما أهبه له، ولم يكن في طاقتي أن أعزّيه بشيء لم أجده لأعزّي به نفسي، وقلبي الذي ظننته ذخيرة الذخائر لم يكن في رقبته إلاّ قيداً، لأنّه لا يستطيع أن يهبني، بالمقابل، قلبه، لأنّه فقد قلبه في التّيه يوم فقد شقّ الحجر المعلّق في رقبته، فاجتثّ الجنّ قلبه من بين ضلوعه. فهل من حقّي أن أتوقّع من انسان فقد قلبه أن يتقبّل قلبي ويرى فيه هبة أنفس من كلّ الهبات؟ هل من حقّي أن ألومه إذا انطلق وطلب العزاء في مكان آخر فراراً من تنّين العزلة؟

هل من حقّي أن أعترض سبيله في فراره حتى لو كنت أدري أنّه لا يفرّ من تنّين العزلة إلاّ ليقع في قبضة تنّين آخر هو المرأة؟ هل من حقّي أن أملي يقيني على إنسان قرّر أن يذهب الى الخلاص حتى لو كنت أعلم أن خلاصه ليس خلاصاً، ولكنه هلاك في هلاك؟

عدت على عقبي تلك الليلة ظانّاً أنّي عدت على عقبي إلى الأبد. عدت إلى رحاب «آلّون» العظيم وتوسّلت الوادي القديم أن يكون لي في الفقد سلوى، وفي عزلتي بديلاً. والحقّ أنّ وادي الوديان، ومسقط البشارة، وشاهد السيرة الأولى، لم يبخل عليّ بكل ما اعتاد أن يعزّي به العشّاق والمهاجرين، وأصحاب العبور، ولكنّه لم يستطع أن يجد لي عزاء لأنّني مهاجر آخر، وعاشق آخر، وسليل وطن آخر. لم ينفع ترياق الوادي المقدس في مداواة

علّتي لأنّ دائي داء آخر، وعشقي عشق آخر، وبُغيتي بُغية أخرى. لم يفلح وادي الحرم في تطهيري لأنّي لم أشيّع بصراً إلى السماء، ولم أرهن قلبي في الملكوت الأعلى، ولم أتعشّق ما كان يجب أن يُعشق كما فعل أسلافي الكهنة وشعراء الملاحم القدماء، ولكنّي انكببت أرضاً، وفتّشت في الأسافل عن قلبي الذي أضعته يوماً في ركن ما من أركان أهل الأسافل والحضيض. رأيت الوجوم في جبال الوادي العظيم، وقرأت في جلاميده الجليلة حزن العجز، فدفنت رأسي في المغارة وبكيت. بكيت بأعلى صوت فردّدت الشعاف النبيلة النوح، وغنّته في مرثيّة حقيقيّة استمرّت تقرع أذنيّ حتى بعد أن كفّت القمم عن البكاء واختارت الصمت كفناً أبديّاً. ساعتها نزلت السفوح بسرعة ودّان، وقفزت على ظهر البعير العاري من السرج، وانطلقت إلى «تانوت ملّت». لم أدركه هناك، فالتجأت إلى المراعي، ولكنّ المراعي كانت مهجورة أيضاً، فتتبّعت الأثر. تتبّعت الأثر غرباً، وقطعت مسافة طويلة في الطريق المؤدّية إلى وادي «إمي-ن-هرو»، وأدهشني أن يقطع بالإبل هذه المسافة لأنّ غيابي لم يستغرق سوى يومين وليلتين. أدركت البعائر على مشارف الوادي أخيراً، ولكنّي لم أعثر على صاحب الإبل بين الإبل. تفقّدته في الشعاب المجاورة، وبين شجيرات الطلح التي تتكاثر في قيعان الأودية المتفرّعة من الوادي الأمّ، وبين كهوف الجبال الصخرية المعزولة التي تتوسّط السهل الفسيح، ولكنّ الجنّي انقشع. عدت إلى المرتع، وفتّشت حتى اهتديت إلى الأثر. سافر غرباً، فسافرت في أثره. في مسافة أخرى تباعدت بصمات خفّ المهري على الأرض فعرفت أنّه انطلق بالجمل في الهرجلة. لدغت ظهر بعيري بطرف الزمام وأسرعت لئلاّ يدركني الغروب قبل أن أدركه. ولكنّ المغيب حلّ، والأرض تخلّت عن تسامحها وأفضت إلى الوعورة المؤدّية إلى سلسلة «تاسيلي». ترجّلت لأتتبّع الأثر عن كثب. تكاثفت العتمة، ولكنّي لم أيأس. تعاظمت العتمة، وما

لبثت أن انقلبت ظلمة حقيقيّة، ولكنّي لم أستسلم. مضيت أقود الجمل، وأنحني على الأرض مستعيناً بأضواء الأنجم. وجدت عناء في البداية، ولكنّ عيني آلفت الظلمة، ووجدت في ضياء النجوم نوراً لا يختلف عن أنوار الأقمار، فانهمكت ولم أفق من غيبتي إلاّ عندما زعزعني صوت. توقّفت لأتسمّع، ولكنّ السكون تسلّط، فظننت الأمر وسوسة من الوساوس، فانطلقت. بلغت أرضاً رضرضاً، مفروشة بالحصباء، ولكنّها لم تخف الأثر. صعدت مرتفعاً قاسياً فغزتني رائحة الدخان. بلغت شعفة المرتفع فاكتشفت أن المرتفع يسلنطح ويهجع في الجانب الآخر في واد سحيق. في قلب الوادي انتصب أكثر من خباء، ودبّ أكثر من مخلوق، واجترّت في المربد الإبل، وعلا في المباءة ثغاء العتاعت ونبيب التيوس، وصياح المعز. فهل هو منتجع للجنّ، أم مضرب من مضارب الإنس؟ هل دأب الشقيّ على ارتياد النجع المجهول طوال هذا الزمان؟ هل اشتمّ الأبله رائحة الأنثى كما تشتمّ البعائر رائحة المطر، فانقاذ إلى وطن الأنثى في كلّ مرّة أغيب فيها في طرق القوافل طلباً للزاد؟ هل صدق حدسي بوجود المرأة يوم تمادى القرين في سبيل الابتعاد؟

قضيت ليلتي في واد بعيد، وفي الصباح اعتصمت بصخور السلسلة الجبليّة حتى ارتفعت الشمس ودبّ في الخلوات الرعاة. تتبّعت رعاة الإبل، ونزلت على مراعيهم كما ينزل كلّ أصحاب السبيل. استضافوني بالحليب الطازج، فسألتهم عن الهويّة. قالوا إنّهم من أهل «تاسيلي» الذين يعيشون متشبّثين بأعالي الجبال منذ أقدم الأجيال، ولا ينزلون السهول إلاّ في المواسم التي يهجرهم فيها العشب، وينزل السهول السفليّة، فلا يجدوا مفرّاً من التنكّر للشعاف والنزول إلى الأحاضيض لملاحقته.

عدت إلى الحرم وانتظرته هناك. أقبل في مساء اليوم التالي، فخرجت لملاقاته. ترجّل عن مطيّته، وتقابلنا. استمرّت المواجهة

طويلاً. نظرت في عينيه، في مقلتيه، في قلبه الخالي من القلب، قبل أن أقول:

- إذا لم يذهب الرجل إلى المرأة، فإن المرأة لا بدّ أن تجد حيلة تذهب بها إلى الرجل.

فرّ ببصره، ولكنّي لم أرحمه:

- ها أنت تفسد في يوم، ما أصلحناه في أعوام!

١٢

– ها أنت تفسد في يوم، ما أصلحناه في أعوام!

أعدت القول بلغة التسليم، ولكنّه احتجّ بقول استفزّني:

– ومتى كنت بين يديك أسيراً حتى تعلّمني أنّ التخلّي عن خلوتك فساداً؟

قفزت. انبثقت من المجهول النار فتفزت وأمسكت به من نحره:

– أنت لست أسيري. أنت شرخي. أنت لست شقيقي، أنت شقّي. أنت لست شقّي، أنت شقائي. أنت لست أنت، أنت أنا. أنا لست أنا، أنا هو أنت. هل فهمت؟

اشتبكنا. لا أعرف كيف اشتبكنا. نفث في وجهي أنفاس الكراهة، فاشتبكنا. أبصرت في مقلتيه إيماء الازدراء والاستنكار، فوثبت إلى خناقه. دفعني بعنف ليحرّر أنفاسه من قبضتي، فاستيقظ المارد في صدري. استيقظ المارد القديم فالتجأت إلى

المدية في الحال. لا أعرف كيف ولا متى استخرجت اللسان الظامئ من معقله في الغمد، وطرحت الخصم أرضاً، ثم جثمت فوق صدره والمدية تتلاعب وتلامس نحره.

رأيت في عينيه فزعاً لم أره في عيني إنسان، فضعضعني الفزع وأعادني إلى نفسي. إنهار المارد، واسترخى بدني المزموم، ونحيت عنه. هجعت بالجوار مستنزفاً، لاهثاً، أطارد الأنفاس الضائعة. ولكنّ الغضبة في صدري لم تمت، لأنّي كززت على أسناني وبرطمت بغلّ:

– احترس أن تفقد كنزاً تتباهى بالاستهانة به، ولا ترتجّ خوفاً من فقده إلاّ في الغمضة التي يتهدّدك خطر إضاعته!

أطلقت ضحكة. ضحكة شريرة. ضحكة من ذلك الجنس الذي ينطلق في صدري فلا أدرك لها علّة، ولا أجد لها معنى. ولكنّ الجنون الذي تلا الضحكة ربّما صار أهلاً لتفسير ضحكة الجنون. مددت يدي إلى صدري، وانتزعت الشقّ الحجريّ المعلّق في رقبتي منذ أزمان المهد. انتزعت تميمة الأبد، ورميتها في وجهه. انتصبت على قدميّ. كنت أرتجف بعنف. كنت محموماً. ولكنّي أطلقت في وجهه وصيّتي:

– إذهب بهذه إليها، وقل لها إنها سترى في المنام نفسها وهي تفترس لحم إنسان!

انطلقت. سافر إلى «آلّون» والتحقت ببعائري. هناك دسست رأسي في غار وبدأت أغالب الحمّى. كبّلتني حمّى ذكّرتني بحمّى الطفولة التي سلبت عقلي قبل أن تحرق بدني. لم أتوجّع كثيراً، لأنّ الحريق لم يمهلني. الحريق ساقني إلى المجهول لأنّه ما لبث أن غيّبني. لا أدري كم من الزمن مكثتُ في الغيب، ولكنّي وجدته يجلس فوق رأسي، ويعتصر جبيني بقطعة كتّان مبلّل، ما أن تحرّرت من ظلمات المجهول، وعدت إلى مملكة الصحراء. في رقبتي استقرّت التميمة الأبديّة، فعرفت أنّي لم أكن لأستعيد الحياة

لو لم يهرع ورائي ويطوّق عنقي ببلسمي القديم. انتظرته أن ينصرف. كنت على يقين أنّه سينصرف ما أن يراني أرتدّ إلى الوطن. ولكنّه لم ينصرف. بل وجد في نفسه الجرأة لكي يتكلّم. تكلّم بنبوءة لم أصدّقها:

- هيهات أن آتي أمراً لم تره لي!

١٣

الشفقة هي السبب. الشفقة صرعتني. لولا الشفقة لما استسلمت أبداً. ولم أدرك إلاّ في ما بعد سلطان الشفقة، طغيان الشفقة. ولو لم تكن الشفقة جبلّة طاغية لما استطاعت أن تنتزع الطغيان من قلوب الطغاة، لتجبرهم على التنكّر لناموس الأشياء بتخلّيهم عن سجاياهم كطغاة؛ فكيف كان بوسعي أن أغلّب تلك القوّة التي غلبت أرباب القوّة؟ ما زلت أدسّ في قلبي ما حدث. ليس من حقّي أن أنسى ما حدث. استعدته، ولكنّي لم أستعده إلاّ وحيداً. استرددته، ولكنّي لم أسترده إلاّ مهجوراً. نلته من جديد، ولكنّي لم أنله أبداً، لأنّ عزلته كانت، بعد رجعته، عزلة أبديّة. حاولت أن أميت في قلبي طلعته في تلك الليلة التي تسلّلت فيها لأتجسّس عليه، ولكن هيهات. حاولت أن أكتم أنفاس الرؤيا التي أوحت لي، بشرر كإلهام النبوءة، بعزلته الأبديّة، بشقوته الخالدة، بقدره الأخير. أجل، أجل. القَدَر الذي طوّق رقبته في

تلك الغمضة ذكّرني بالقدر المميت الذي رأيته يطوف حول رأس الأب في وقفته في ذلك اليوم الذي أدركت فيه أنه هالك. رأيت رجالاً كثيرين ينتصبون في الخلاء ساعة الغسق، ولكنّي لم أرَ وقفةً كتلك الوقفة. رأيت رجالاً كثيرين يتربّعون حول مواقد النيران وحيدين، ولكنّي لم أرَ طلعة كتلك الطلعة. فهل كانت فجيعتي فيه، في تلك اللمحة، العلامة التي أيقظت في قلبي فجيعتي في نفسي؟ هل هزّتني عزلته الأبديّة لأنّي رأيت فيها، عزلتي الأبديّة؟ هل زعزعني ضياعه لأنّي قرأت فيه ضياعي؟ هل فاضت الشفقة في نفسي، ووسمت قلبي بمسّ لا يُنسى، لأن القرين الذي ظننت أني أستطيع أن أمتلكه (لأنه، أنا، وأنا هو) مخلوق آخر ليس وحيداً وشقيّاً في خلوته بنفسه وحسب، ولكنّه مخلوق بعيد أيضاً؟ يقيناً أنّ سرّ الفجيعة في ركن ما هنا. يقيناً أنّي لم أحمل له قلبي إشفاقاً لو لم أرَ نفسي فيه، لو لم أرَ مصيري في مصيره المميت، لو لم أدرك، في ومضة العجب، أنّ المخلوق الذي أنفقت حياتي لأستولي عليه ليس قريناً، ولن يكون لي قريناً في يوم من الأيام حتى لو شاء أن يصير لي قريناً، لأنه جرم آخر، مخلوق آخر، إنسان آخر لا ينتمي إليّ ولا أنتمي إليه، لأنه بالسجيّة كائن تائه في صحراء أخرى معزولة عن صحرائي، ولن أستطيع أن ألتقيه ما ظلّ منفرداً بنفسه، ولن أستطيع أن أصل إليه ما ظلّ معتزلاً بنفسه، ولن أستطيع أن أفهم له لساناً ما ظلّ منطوياً على نفسه، ومكتفياً بنفسه، فكيف بنيله أو الاستيلاء عليه؟

كانت قناعة مميتة، ولكنّي أخفيتها بعيداً كما اعتدت أن أفعل دائماً عندما يتعلّق الأمر بالوساوس المخيفة التي لا أريد أن أعترف بها فأحاول دوماً أن أحتال عليها. احتلت هذه المرّة أيضاً وأقنعت نفسي بسلطان الشفقة، فاجتمعت إليه لأسرّ له بأمري. قلت له إنه كان على حقّ يوم ثار على الأسر، لأنّي أدركت أنّي لن أستطيع أن أخفيه عن ملّة المرأة حتى لو استطعت أن أخفيه عن أدهى رجال

الجنّ، لأنّ المرأة تستطيع أن تفلت من الرجل إذا قرّرت أن تهجر الرجل، ولكنّ الرجل لا يستطيع أن يفلت من المرأة حتى لو قرّر أن يهجر المرأة. قلت له إنّ ما فعله صواب، لأنّ المرأة لعنة لا مفرّ منها، واللعنة إذا كانت قدراً فالأهون أن نهرع لملاقاتها بدل أن تحلّ علينا حلول الفلتة، لأنّ إقبالنا عليها قد يهوّن شرّها، ولكنّ إقبالها علينا، غفلة، يضاعف شرّها. قلت له إنّه يستطيع أن يذهب إليها، ولكن عليه ألاّ يطمع في أن أتخلّى لها عنه. أجل. عليه أن يعلم أنّي لا أنوي أن أتنازل عنه لامرأة حتى لو كانت تلك المرأة ستنجب له ذريّة تستدرجه بها لتستبقيه إلى جوارها. قلت له إنّي أستطيع أن آذن له بالالتئام بامرأته، ولكن عليه أن يكبّل نفسه بعهد يلزمه أن يمكث إلى جواري ضعف الأمد الذي يمكثه إلى جوارها. بكى. يومها بكى المسكين وطوّقني في عناق طويل. في البدء لم يصدّق. في البدء حدجني، خلسة، بعين الشكّ. حدجني بعين الشكّ عشيّة كاملة، وعندما أدرك أنّي لا أستهزئ ولا أعبث، انهار. انهار ورمى بنفسه في أحضاني. ارتجف بين ذراعي رجفاً عنيفاً، ولمّا انطفأ في جوفه اللهب نطق بالعهد. قال صادقاً إنّه لن يستبدلني بها حتى لو أراد، لأنّه جرّب كيف يتعطّش للفرار في كلّ مرّة استبقَتْه فيها إلى جوارها طويلاً. قال إنّ المرأة مخلوقة مملّة حتى لو كانت معشوقة. ثم تضاحك وقال إنّه لم يفهم مسلك أصحاب العزلة الذين يهربون من النساء ويعتصمون بالخلاء إلاّ الآن. قال أيضاً إنّه سمعها تسبّ الصحراء مراراً وتقول إنّها بسبس لا يصلح للأقوام وطناً، لأنها تستدرج الرجال بعيداً عن مضاجع النساء، فتهدّد السلالات بالانقراض.

أطلق ضحكة مسموعة. كانت ضحكته ضحكة إنسان آخر. ضحكة إنسان استبدل قناعه الخفيّ بقناع آخر، ضحكة إنسان استعار قلباً آخر، فهل هذا الترنيم في الصوت هو ما يسمّيه القوم سعادة القلب؟

١٤

غاب عني أنّ الرجل، كالمرأة، لا ينقسم، ولا يُقتسم، ولا يشترك في امتلاكه طرفان، فعرفت خطيئتي بعد فوات الأوان. لا أنكر أنّه حاول أن يفي بالعهد صادقاً. لا أنكر عليه استماتة البطولة التي أراد أن ينقذ بها ما يمكن إنقاذه، ولكنّ بطولته كانت بطولة اليائس، لأنّ السجايا أقوى من البطولة، وشرع الكائنات أبقى من صدق النوايا، وناموس الأشياء أعظم سلطاناً حتى من العهد، فكيف غاب عنّي أنّ إيلاج جمل في خرم إبرة أيسر من إقناع امرأة بقبول مشاطرتها الرجل الذي اختارته قريناً؟ ظننتها ستستأثر به في الأشهر الأولى التي تلت القران احتفاء باقتناص الضحيّة، ولكنّ ربيبة السلالة التي تعجز حتى الآلهة على التنبؤ بمسلكها كذّبت ظنوني. كذّبت الجنيّة ظنوني لا من باب الاعتراف بالإحسان، ولا تبرئة لنفسها من إثم كان، دائماً، قدر كلّ من تجاسر على خيانة العهد، ولكنّ الداهية كذّبتني احتيالاً. كذّبت ظنوني

لتستدرجني. حثت في وجهي رماداً لتكتسب ثقتي، وتستغفلني انتظاراً لليوم الذي تحكم فيه الوهق حول عنق المسكين لتسلبه منّي سلب الأبد. نسيت عدائي القديم مع هذه الملّة. نسيت عراكي المميت مع امرأة الأب، ونسيت الأغلال الفظيعة التي حاولت حسناء القبائل ان تطوّق بها عنقي. نسيت أن المرأة أينما حلّت فثمّ شرك مميت. نسيت أن كل مواجهة مع هذا المخلوق خطر. نسيت أنّ كلّ صفقة تكون فيها الأنثى طرفاً لا بدّ أن تنقلب خسراناً حتى لو تبدّت ربحاً. نسيت أن العراك الذي تكون فيه المرأة خصماً مصيره الإخفاق حتى لو انتهى نصراً. نسيت، لأنّنا لا بدّ أن ننسى إذا شئنا أن نحيا. نسيت لأنّنا، إن لم ننسَ، لن نولد. نسيت لأنّنا، بالذاكرة، نصير أرباباً، ولكننا، بالنسيان، نصير أناساً.
كان، في بداية العهد، يقضي إلى جوارها أيّاماً قد تتجاوز الأسبوع، ونادراً جداً ما تصل إلى الأسبوعين، في حين نقضي معاً في برّنا القديم أسابيع قد تمتدّ، في بعض الأحيان، الى الشهر. كان سعيداً، وكنت لسعادته سعيداً. كان يهزل ويلهو ويتسلّى كطفل. كان يطارد الحيران، ويصرع الجدعان، ويدعوني لمباريات في السباق، والمصارعة، والقفز لاجتياز مواقد النيران المهولة. في تلك الأيام لاحق شاة ودّان ركضاً على الأقدام، واستطاع أن يصطادها ليكسب رهاناً جرى بيننا. في ذلك الزمان رأيته كما لم أره من قبل. في ذلك الزمان استعاد روحه التي فقدها في التّيه، وعرفت فيه القرين الذي ألفته قبل أن يستبدله الجنّ. أباد المسافة القاسية التي قطعها يوماً ليبتعد عنّي، ورأيته قريباً، مجاوراً، حميماً، استطيع أن أمدّ يدي وأدسّه في جؤجوئي لأستردّه الى الأبد ليعود جزءاً منّي وأغدو جزءاً منه كما كنّا في يوم النسيان الذي سبق الميلاد؛ فهل استطاعت المرأة أن تبعثه حيّاً؟ هل بوسع هذا المخلوق الغامض أن يبعث الأموات، ويحيي العظام وهي رميم؟ هل عَبَد الأجداد المرأة، واتخذوا من سلالتها آلهتهم،

ووضعوا في يدها مقاليد الزعامة، وولّوها أبواب المعابد لتكون بينهم وبين السماء وسيطاً، لسرّ عرفوه في هذا المخلوق الخفيّ غاب عن الأخلاف؟ أم أنّ الأسلاف لم يعبدوا المرأة إلاّ لخوفهم من المرأة، لأنّهم اعتادوا أن يحتموا ممّا يخافون، بدل أن يفرّوا ممّا يخافون؟

١٥

ولكنّ المخلوق الغامض شدّ الوثاق، وسحب الوهق، فتوارى القرين من برّ الخلاء قبل أن يتوارى في عينيه بريق الفرح الذي أسمته الأجيال سعادةً. كشفت القوّة الخافية عن نواياها الحقيقيّة، واستعادت المرأة باليسرى ما وهبته باليمنى. لم تكشف القناع عن وجهها بين يوم وليلة، ولا في أسابيع، ولا حتى في أشهر، ولكنّها دبّرت مكيدتها في أمد امتدّ أمداً، في أمد امتدّ اعواماً. فهل يُصدّق وجود مخلوق في الصحراء يستطيع أن ينافس المرأة في الدهاء؟ هل يوجد في الصحاري كلّها كائن واحد يستطيع أن يفوق المرأة تصبّراً، وتمهّلاً، وتريّثاً، وطول بال؟

في الزمان الذي لحظت فيه انقشاع الأمل وعودته إلى قماقم الوجوم، حاولت أن أحييه، فاستنطقته. ولكنّه تفلّت، وتحجّج وانتحل أسباب البهتان. خادعت نفسي قائلاً إن السرّ في السويداء، والغمّ الزائر لا بدّ أن يعبر. الغمّ لم يعبر، لأن صاحب

الغمّ ما لبث أن فرّ. أجل، أجل. فرّ الى أجناب معشوقته وتركني في «إيمي-ن-هرو» وحيداً. لم يتركني، ولكنّه، هذه المرّة، هجرني. هجرني شهوراً. استعنت في الأسابيع الأولى بالكبرياء. قرّرت أن أحاكي المرأة في التروّي والتصبّر وتربية البال. قرّرت أن أتعلّم الدهاء فسحقت قلبي في جوفي زمناً. ولكنّ النزيف غلبني. أدركت أنّ الجنون سيكون مصيري إذا لم يدركني. انتظرت أن يدركني قبل أن يدركني الجنون، ولكنه لم يدركني. مات في قلبي الكبرياء الكاذب، واشتعل في صدري إلهام. ومض الشرر، فرأيت المكيدة في الرؤيا. أيقنت بالرؤيا، أنّ المسكين لم يتخلّ عنّي، ولكنّ الخبيثة هي التي تخلّت عنّي. أيقنت، بالرؤيا، أنّ الشرخ، كأيّ رجل، في كفّ الجنيّة دمية بلهاء لا حول لها ولا قوّة. ولكنّ الداهية لم تحجبه عنّي الاّ ليقينها بأنّي لن أحتمل الفراق طويلاً. وإذا لم أحتمل الفراق فلا سبيل أمامي إلاّ أن أستنجد بها، أو أقضي نحبي في الخلاء وحيداً. وفي كلا الحالين فإن اللئيمة لن تخسر شيئاً. في كلا الحالين فإن الداهية هي الغالبة وأنا المغلوب. ازدرت كبرياء البهتان وفررت لألقي نفسي بين يديّ الداهية. في معقل الداهية كانت تنتظرني أعجوبة أخرى. بين يدي الدّاهية وجدت السرّ الذي هيّأته الهامّة لتحكم الغلّ حول رقبة قريني المسكين. لوّحتْ بالدمية في الهواء دعابةً، وقالت، وهي تحدج القرين خلسة، إن الرجل لا يستحقّ لقب الرجل إذا لم يزرع في الصحراء الذريّة. قالت، أيضاً، إنّ صون سلالة الصحراء رسالة المرأة في الصحراء. رمت الوليد في الهواء، وتلقّفته لتقول بذلك الدهاء الذي خبرته في هذه الملّة طويلاً: «ما أشدّ بلاهة الرجل إذْ يظنّ الرجل أنّ المرأة تستبسل لنيله لتستولي فيه على كنز لا يملكه ولم يملكه يوماً. فليعلم الرجل أنّ الرجل ليس سوى شكوة منفوشة بالهواء! فليعلم الرجل أنّ الرجل ليس سوى بعبع مليء بالخواء! فليعلم الرجل أنّ الرجل هباء في هباء في هباء! والمرأة لا

تنوي أن تستبقي إلى جوارها هذه الشكوة الجوفاء ساعة لولا الوفاء للوصيّة، وحرصها على دوام الذريّة في الصحراء. وإذا كنتَ تسيء بي الظنّ وتشكّك في القول فإليك برهاني: هذا قرينك أمامي... خذه في الحال! خذه من يده واذهب به إلى أبعد صحراء، وتيقّن أنّي لن ألاحقه، ولن أسائل أحداً عن مصيره، لأنّي لن أكون في حاجة إليه أبداً بعد أن نلت منه حقّاً ما لم أنله منه إلاّ احتيالاً». لم أصدّق أكذوبتها. لم أصدّق أكذوبتها الجميلة ليقيني بأنّ المرأة مخلوق لا يقول أبداً ما يريد أن يقول، لأن في المرأة كائناً آخر يتكلّم بالانابة عنها، ويطرح في لسانها أجمل الأكاذيب حتى لو شاءت المرأة أن تُجري على لسانها أنبل الحقائق، لأنّ الكائن الذي يسكنها يرفض الحقيقة، لأنّه كائن من طبيعة معادية لطبيعة الحقيقة، لأنّه ينتمي بسليقته إلى سلالة أخرى مجهولة لا علاقة لها بسلالات الخلاء ولا بسلالات الخفاء. لهذا السبب تستمرئ المرأة الكذب. لهذا السبب لا تستسلم المرأة للرجل الذي تحبّ، ولكن للرجل الذي يكذب، لأنّها لا تستطيع أن تحبّ الرجل الذي يجب ان تحبّ، لأنّ الرجل الجدير بالحبّ، عادةً، رجل لا يكذب.

خرجت بالقرين من بيت القرينة في ذلك اليوم، ولكنّ مكوثه معي لم يدم طويلاً. ذلك أنّ البلبال ما لبث أن استولى على بال الشقيّ، لأنّ الشقيّ لم يكن ليحتمل فراق الدمية التي تركها بين يدي قرينته طويلاً، فأدركتُ أنّ الداهية هزمتني مرّة أخرى، لأنّها لم تهبني القرين بيدها اليسرى، إلاّ ليقينها بأنّها ستستردّه بيدها اليمنى.

١٦

فوزي به لم يدم طويلاً، لأنّ الداهية عرفت كيف تستعيد منّي عطيّتها. لم يحاول البائس أن يخفي عنّي ضياعه منذ الأيام الأولى. تظاهر بالسعادة، وحاول أن يضلّلني بالمرح المزوّر، ولكن فاته أن الإنسان يخون نفسه عندما يحاول أن ينتحل السعادة انتحالاً، لأنّ السعادة، كالحبّ، لا تُنتحل ولا تُفتعل. تضاحك كثيراً، وطارد الغزلان والودّان، وصارع الجذعان، وحمل بين يديه الحيران، وكافح ببطولة ليخفي عنّي ضياعه. ولكنّ الضياع بلبلة لا تُخفى. الضياع بلبال لا يُخفى. الضياع علّة لا تُحتمل ولا تُخفى. لم يكن أمامي إلاّ أن أتظاهر أيضاً. لم يكن أمامي إلاّ أن أتظاهر كي أستبقيه. تظاهرت بتصديق سعادته. تظاهرت بتصديق أكذوبته. ولكن هل أفلحت في التظاهر؟ هل أتقنت اللّهو؟ هل أجبرته أن يصدّق أنّي صدّقته؟ كلاّ. كلاّ. يقيناً أنّي لم أفلح. يقيناً أني لم أفلح في إقناعه بلهوي كما لم يفلح من جانبه في إقناعي

بلهوه. لم أر شكوكه في عينيه وحسب، ولكنّي قرأت يقينه في مسلكه. ويبدو أنّه اشمأزّ من لهوه، وربما من لهوي أيضاً، فقرّر أن يضع حداً للهو. قرّر أن يضع خاتمة للافتعال فأيقظني في منتصف إحدى الليالي وقال لي وهو يرتجف أنّه لم يعد يحتمل. كان النعاس ما يزال يملأ عينيّ ويشلّ عقلي فلم أفهم. فركت عيني لأتحرّر من سعابيب النعاس، ولكنه لم يمهلني. وثب إليّ، وهزّني من منكبي بعنف المجانين. نفث في وجهي أنفاساً كفحيح الأفعى، وحشرج بصوت أنكرت فيه صوته: «لا أستطيع، أتفهم؟ لم أعد أستطيع. لم أعد أستطيع. يجب أن تفهم! يجب أن تفهم!». أدركت أنّي لن أستطيع أن أذكّره بالعهد لأنّه لن يفهم الكلم، فكيف يستطيع أن يعترف بعهد؟ أدركت، أيضاً، أنه سيفلت إلى الأبد إن لم أفعل شيئاً. أدركت أن الداهية خدعتني أقبح خدعة يوم رمت في وجهي بحجّة التحدّي، فانطلت عليّ حيلتها لأني خنتُ نفسي وأحسنت الظنّ بمخلوق لم يحسن الظنّ بنفسه. سلبت، في ذلك اليوم، لُبّه، وأعطتني الشكوة. سحبت من الشكوة القشدة، وتنازلتْ لي عن الخواء في الشكوة. خسرتُ الرهان مع المرأة مرّة أخرى، وعرفت أن الرجل لم يخلق إلاّ ليخسر الرهان مع المرأة. عرفت أنّي لم أخسر الرهان معها في يوم الخدعة، ولكني خسرت رهاني يوم غلبتني الشفقة، فدفعت القرين إلى أحضان المرأة ظانّاً أني أستطيع أن أقتسمه معها بأغلال العهد. نسيت، كما نسيت دائماً عندما يتعلّق الأمر بامرأة، أنّ المرأة لا تعترف بالعهد، لأنّ أغلال الفتنة في يدها أقوى من أغلال العهد، وأسلحتها أفتك من أسلحة الأرباب. أدركت أني ظلمته، يومها، وظلمتُ معه نفسي. ولكن لا بدّ أن أعترف، أيضاً، أنّي لم اندم برغم البليّة. لم أنكر في نفسي حمقي لا لعلّة استجابتي لنداء الشفقة، ولكن ليقيني الخفيّ بأنّي لن أستطيع أن أحجب الرجل عن المرأة إلى الأبد حتى لو فررت به إلى أبعد صحراء، لأنّ

المرأة قدر الرجل برغم علم الرجل أنّ في المرأة يكمن هلاك الرجل؛ لأنّ المرأة هي الشَرَك الذي يستمرئه الرجل، فيفرّ إليه اختياراً كما تفرّ الفراشة إلى ألسنة اللّهب. يفرّ الأبله إلى أحضان المرأة يوماً ليهلك، برغم علمه بأنه سيهلك. فهل أستطيع أن أستعير لنفسي حقّاً لم يعطه لي الناموس؟ هل كنت سأفلح لو وقفت في وجه الفراشة التي اختارت اللهب؟ هل كنت سأفلح في انقاذه من قدر المرأة حتى لو أخفيته في قمقم؟ ليلتها حاولت أن استدرجه. ليلتها قرّرت أن أجسّه فسألته بغتة:

- هل هو حنين إلى الوليد؟

- لا أدري.

- هل هو حنين إلى المعشوقة؟

- لا أدري!

- هل تظنّ أنّك لا تستطيع لها فراقاً، وأستطيع أنا لك فراقاً؟

- لا أدري، ولكني لا أستطيع!

- هل تظنّ أنّي أستطيع أن أتنازل عنك لها بيسر؟

- لا أدري، ولكنّي لا أستطيع.

- هل نسيت أنّي قطعت دابر الهول عندما حاول الهول أن يقف في طريقي إليك؟

- لم أنسَ!

- هل نسيت كيف أزحت الأب من الطريق عندما حاول أن يعترض مسيري في الطريق إليك؟

- هيهات أن أنسى!

- هل نسيت ما أسميته نبوءة الأب عندما قال لك إنّي لن أقف عند حدّ في الطريق اليك؟

- هيهات أن أنسى!

- هل نسيت العهد؟

- لم أنسَ.

- هل تـظنّ أنك تستطيع أن تنجو من قصاصي إذا استطعتَ أن تنجو من قصاص العهد؟

- تستطيع أن تفعل بي ما تشاء، ولكني لا أستطيع، لـم أعد أستطيع!

في الصباح فرّ.

استيقظت مبكّراً، فوجدت فراشه خاوياً. لـم يحمل زاداً ولا ماء، ولا أغطية. ترك كل شيء، ولاذ بالفرار.

١٧

- تستطيع أن تفعل بي ما تشاء، ولكني لا أستطيع، لم أعد أستطيع!

لم أنسَ له هذا القول. لم أنسَ له هذا القول لأنّي وجدتُ في القول مفتاح المحنة كلّها. أدركت أنه سُلب من نفسه كما سلبني من نفسي يوماً. أدركت أنّ عليّ أن أفتّش عن الترياق في مكان آخر بدل التحرّش بمخلوق سليب لم يعد يمتلك من أمره شيئاً. سافرت في أثره لا لأردّه بالقوّة، ولكن تنفيذاً لنيّة أخرى. بلغت المضارب عشيّة، ولكنّي تسكّعت في السفوح المجاورة حتى تسربلت الصحراء بسبائب الغروب. أقبلت على الخباء فوجدتهما يلتئمان حول الموقد ويتدفآن بالنّار. أفسحا لي إلى جوارهما مكاناً، ولكنهما لم يتكلّما. ظلاّ ينكبّان حول الأرة، ويتلقّفان شعاف اللهب بأيديهما. مددت يديّ إلى ألسنة اللهب أيضاً، ولكنّي لم أسكت طويلاً. انكفأت على الموقد. حدّقت في

الأتون. سمعت الأعواد تتوجّع في الأتون. رأيت العيدان الخضراء تنزف دماً في قلب الأتون. لا أعرف لماذا يخيفني صوت الأحطاب الرطبة عندما تتوجّع في قلب النار. لا أعرف لماذا تفجعني أعضاء الأشجار الخضراء عندما تنزف دماً في ألسنة اللّهب. لم أرَ نزيفها يوماً دون أن تستولي عليّ الرغبة في البكاء. لم أسمع استغاثتها يوماً دون أن أختنق شهوة إلى النواح. خنقت ساعتها شهوة الى النواح أيضاً لأني أطلت الاستماع الى استغاثة أطراف الأشجار. خنقت يومها رغبتي المميتة في البكاء أيضاً لأني رأيت الأغصان تتغسّل في نزيف الدمّ. أغمضتُ عينيّ لئلا أرى، وتكلّمت لئلا أسمع. تكلّمت فسمعت صوتاً يقول:

- لا أنسى يوماً حدثتني مولاتي عن الناموس بلسان الناموس!

تمادى السكوت. تمادى السكوت فسمعت أنفاس الوليد الرتيبة تنطلق من كوم أغطية تجاور الركيزة. ولكنّ نحيب الكائنات التي تفترس أجرامها النّار ما لبثت أن استغاثت من جديد. استغاثت فأسكتّها بالصوت:

- تحدّثت مولاتي يوماً عن الخواء، وعن الحقّ. تحدّثت مولاتي فقالت إن الرجل خواء، والوليد الذي يأتي به الرجل هو الحقّ. تنازلت لي مولاتي يومها عن القرين لأنّها نالت من القرين ما أمر الناموس المرأة أن تناله من الرجل. لا أستنكر على مولاتي استعادتها لرجل لم تر فيه كنزاً، ولم تتخلّ عنه إلاّ احتيالاً، ولكنّي جئت لأنصّب الناموس، في الخصومة مع مولاتي، حكماً.

لم يدم الصمت طويلاً هذه المرّة. سمعت صوتها المكابر يتساءل:

- ماذا يقول الناموس؟

- الناموس الذي نصبّ المرأة لسلالة الصحراء منقذاً هو الذي قضى بأن تخرج المرأة وراء القرين لتصير جزءاً من القرين.

- لا تصير المرأة جزءاً من قرين يقترن بقرين.

- لو لم يقترن قرينك بهذا القرين لما وجد السبيل اليكِ يوماً.
- حقّاً؟
- لو لم يقترن قرينك بالقرين لما وجد السبيل إلى الحياة يوماً.
- هل تريدني أن أصدّق أكذوبة الانفصام؟ هل تريدني أن اصدّق أن قلب الإنسان يمكن أن يستعير جرماً ليدبّ بين الخلق بالجرم الآخر؟
- ما يدري مولاتي ما هو القلب؟ بأيّ حقّ تتحدّث مولاتي عن سرّ القلب؟ ألا تدري مولاتي أنّ القلب أحجية الأحاجي وأعجوبة الأعاجيب؟
- لا يجب أن أدّعي بالقلب علماً حقّاً، ولكنّي أعلم أمراً لن يضيرك أن تسمعه أبداً: المرأة كالربّ، المرأة، كربّ الأرباب، لن ترتضي في القرين شريكاً.
- لم انزل رَبْع مولاتي لأشارك مولاتي القرين، ولكنّي جئت لأذكّر مولاتي بأن القرينة لن تستطيع أن تنال قريناً إذا لم تختلِ به بعيداً عن أعين الأغيار.
- لم يدر في بالي أنّي سأهجر الأهل يوماً.
- أهل القرينة هم القرين، والأجل الذي أقرّه الناموس للبقاء الى جوارهم قد انقضى منذ زمن بعيد.
- لا أعرف كيف أستطيع أن أسلّم زمام أمري لقرين سلّم زمام أمره لقرين.
- لا أشكّ أيضاً في أنّ مولاتي ستجد أهلاً في قلب قرين كانت معه دائماً على شكّ.

سكتت، فاستبدّ، بالمكان، الصمت. في أرة النار انتحبت العيدان. في قدم العمود زعق الوليد.

١٨

الصفقة لم تدم طويلاً.

الصفقة لم تدم طويلاً لأن في الثوب المهلهل لا يجدي التلفيق ولا الترقيع. كانت من أمري في شكّ منذ أوّل يوم، فكيف ظننت أنّها ستأتمن أمري ذلك اليوم؟ أضمرت لي عداوة قبل أن تعرفني، فكيف ظننت انّي أستطيع أن أشتري اطمئنانها اليوم؟ تحجّجتُ بالناموس لاستدراجها ونسيتُ (أو تناسيت) أنّ الناموس لم يكن للمرأة يوماً حجّة. كنتُ أعلم أن في رأس المرأة عناداً يكفيها لردّ كلّ أمر لم تُرده لنفسها، ولكنّ يأسي أعماني فتوهّمتُ أني أستطيع أن استغفلها. اشتكتْ من الوحشة بعد زمن قصير برغم محاولاتي ومحاولات القرين للترويح عنها والتهوين من عزلتها. قالت إنها لم تفقد الأهل أو الأقرباء وحسب، ولكنّها فقدت لسانها. قالت إن المرأة تستطيع أن تفقد كلّ شيء وتحيا، ولكنها تموت إذا فقدت لسانها. قلت لها إنها تستطيع أن تطلق العنان للسانها لتستعير

بلسانها الحياة، لتستعير بلسانها ألف حياة، ولكنّها كشّرت في وجهي واتهمتني بأنّي أسخر منها، لأنّ المرأة لا تستطيع أن تخاطب نفسها كالرجل، ولا تستطيع أن تخاطب الرجل كما يخاطب الرجال الرجل، ولا تستطيع أن تحاكي الرجل أيضاً فتخاطب الخلاء، لأنها لم ترَ في الخلاء إلاّ عدواً، كما لا تستطيع أن تتسلّى بمخاطبة الجنّ على طريقة صحبان الخلوة، لأنّها امرأة، والمرأة لا تتسلّى ولا تحيا إلاّ اذا خاطبت امرأة من جنسها. انتهت إلى القول إن المرأة لا تذهب إلى الخلوة بسبب قسوة الحياة في الخلوة، ولكن لأن الخلوة تعقل في فمها عضلة اللسان وتخنق في صدرها صوت الحياة، لأنّ الكهنة قالوا إن المخلوق الذي لا يتكلّم مخلوق لا يحيا. أعجزتني. أعجزتني لأني لم أستطع ان أخلق لها في الخلاء امرأة، ولم أستطع أن أخلق لها من نفسي امرأة، ولم أستطع أن أستعير لها من المجهول لسان امرأة، فهجرتني. هجرتني قبل أن أتدبّر أمري لابتداع حيلة أخرى. فرّت بالوليد ففرّ القرين وراء الوليد، فوجدت نفسي وحيداً مرّة أخرى. همت طويلاً. طفت الأركان، وتسلقت الأجبال، وتمسّحتُ بجدران الكهوف، وتوسّدت أضرحة الأسلاف استجداء للنبوءة. تأخرت النبوءة فأيّستُ. عفتُ الطعام، واشمأززت من الشراب فتضعضع بدني يأساً. ابتعدت الإبل طلباً للكلأ، ووجدت نفسي أعزلاً حتى من قطيع الإبل. هجعت في غار محفور في سفح جبلي مهيب. كان فسيحاً، تتوسّطه أساطين صخريّة عالية، خلف الأساطين تتوزّع الأروقة التي تفضي إلى دهاليز مجهولة. على جدران الغار سكنتْ قطعان الثيران وظلال الأسلاف، استقرّت الكائنات على الحيطان الملساء بوضوح شديد، ففتنتني الألوان، وغبت، في هجعتي، مع القطعان. سمعت جلبة القطيع بوضوح. سمعت دمدمة الحوافر بوضوح. سمعت صيحات الرعاة. سمعت صيحات الرعيان كما تُسمع الأصداء، ولكني لم أستطع أن أتبيّن الرعاة. ثم... ثم

غرقت أصواتهم في جلبة القطيع الرهيب. غرقت أصواتهم في دمدمة الحوافر المكتومة. لا أدري كم استغرقت الهرجة الخفيّة بحساب الوقت، ولكني أذكر أن الهرج ما لبث أن استعار لحن السيول عندما تندفع في قيعان الوديان. تراجع غناء المياه في الشطآن وسمعت أنيناً مكتوماً. علا صوت الأنين وأيقنت أني اسمع انساناً يتوجّع. لا أدري متى ولا كيف تبدّد الأنين لأنّي تلقّيت على عجيزتي ركلة قاسية. فتحت عينيّ فرأيت شبحاً يقف فوق رأسي. أغمضت عينيّ، وانتظرت اختفاء الزائر، ولكنّ الزائر لم يختف. كان مخلوقاً رمادياً هزيلاً ملفوفاً بأسمال السواد. لم أتبيّن وجهه، ولكنّي سمعت صوته. أستطيع أن أنسى كلّ شيء، ولكنّي لن أنسى صوته. لم انسَ صوته برغم أنّه لم ينبس إلاّ بكلمة واحدة: «الكاهن!». سمعت الكلمة بوضوح برغم وهن الصوت الذي تخنقه البحّة. سمعت الكلمة، ولكني لم أفهم الإيحاء الذي تخفيه الكلمة. حاولت أن أستفهم، ولكنّه قرأ نواياي وسبقني ليردّد مرّة أخرى: «الكاهن!». ردّدت كلمة السرّ وراءه فانقشع الزائر، ولكنّي سمعت الكلمة تتردّد في أذني حتى عندما استيقظت من غيبوبتي واكتشفت أني غفوت وأنا أتوسّد حجارة ضريح من أضرحة القدماء. كانت حجارة الضريح مبعثرة عند حضيض الغار المجاور للمدخل: حجارة صغيرة الحجم، في سواد الفحم، لا تنتمي إلى جنس الحجارة في «آزجر» لا في اللون، ولا في الحجم، ولا في التكوين. أيقنت أنها استجلبت من وطن بعيد كما تستجلب الكنوز من أوطان الأدغال.
والقبائل تروي أنّ القدماء لا يستجلبون لموتاهم الأحجار من أوطان المجهول إذا لم يكونوا أبطالاً، أو زعماء، أو كهنة؛ فهل توسّدت عظام كاهن دون أن أدري؟ وماذا أراد الكاهن أن يقول بكلمة: «كاهن»؟ تحاملت على نفسي وزحفت إلى الماء. شربت ماء، وأكلت، في المساء، تمراً، وفكّرت في نبأ الكاهن طوال

الليل. أيستُ مرّة، وبدأت أستسلم للنوم عندما انشقّت الظلمات بسيوف القبس، وانكشف في قلبي سرّ النبوءة. تذكّرت حديث الرعاة عن الكاهن الذي انقطع في «تادرارت» واستمرأ صحبة الجنّ منذ أزمان بعيدة حتى أصبح الناس يشكّون في انتمائه لسلالة الإنس، فهل بعثه لي الخفاء رسولاً لتكون نجاتي على يديه؟

أدركت حقيقة ما يُروى عن سجيّة النبوءة. أدركت أنّ النبوءة لا نختارها، ولكنّ النبوءة هي التي تختارنا. والدليل أنّ النبوءة لا تأتي عندما نستدعيها ونجدّ في بُغائها، ولكنّها لا تنزل في أفئدتنا إلاّ عندما نغفل عنها ونيأس من نيلها. هنا يكمن لغز النبوءة. النبوءة لا تتخلّف عن مريد النبوءة الوفيّ، لأنها، لمريدها، مريد وفيّ. النبوءة لا بدّ أن تأتي يوماً، لأنّ المريد، إذا أراد، فلا بدّ أن يحقّق له الخفاء يوماً ما أراد.

١٩

- أقبلتُ على مولاي بناقة يتبعها حوار.

- ماذا تريد؟

- قلتُ إنّ مولاي، إذا كان سليلاً من سلالات الخلاء، فلا بدّ أن يعاني الظمأ إلى حليب النوق. والنوق ملّة لا تدرّ حليبها على الأغيار إذا لم تُستدرج بالحُوار كما يعلم مولاي.

- هل هذه عطيّة؟

- الكهنة لا يشترون ولا يبيعون. الكهنة يوهبون.

- أخطأت! الكهنة لا يشترون ولا يبيعون، ولكنهم لم يحدث أن تلقّوا شيئاً من مخلوق بالمجّان أيضاً.

- المخلوقات لا تهب الكهنة حطام الباطل إتماماً لصفقة، ولكنها لا بدّ أن تضع في سبيل النبوءة عند قدمي ربّ النبوءة قرباناً. ومولاي أعلم الخلق بأنّ القربان لحياة الإنسان شرط، لأنّ كلّ شيء في الأرض، وكلّ شيء في السماء يستجدي من يدي

الإنسان قرباناً: الأسلاف في أضرحتهم يطلبون من أحفادهم قرباناً، والآلهة في سماواتهم يطلبون من الخلق قرباناً.

- لا أنكر الظمأ إلى حليب النوق حقّاً، ولكنّي عاهدت نفسي ألاّ أمتلك مخلوقاً حيّاً أبداً.

- ولكنّ الناقة ليست مخلوقاً يا مولاي. الناقة، يا مولاي، كائن يعطي صاحبه حليباً، رزقاً، حياة، ولكنه لا يأخذ بالمقابل شيئاً. الناقة، يا مولاي، المخلوق الصحراوي الوحيد الذي يطرح القربان عند اعتاب مولاه بسخاء، ولكنّه لا يأخذ، في مقابل القربان، شيئاً.

- المخلوق الذي لا يأخذ للقربان ثمناً، مخلوق لم يُخلق.

- الحقّ أني لا أعرف أيّ ثمن يمكن أن تأخذه الناقة مقابل القربان.

- المخلوق الذي يتنفّس يأخذ الأنفاس ثمناً للقربان.

- الأنفاس؟

- إذا قبلتُ ناقتك اليوم، فإنّها لن تحيا، في الغد، إلاّ بأنفاسي!

- ماذا يقول مولاي؟

- المخلوق الذي يتنفّس إلى جوارنا، ونمنّي أنفسنا بالاستيلاء عليه، إنما يستولي علينا، لأنّه يكتم أنفاسنا، لأنّه يمتلك أنفاسنا، لأنّه لا يتنفّس إلاّ بأنفاسنا. فأيّ مخلوق يستطيع أن يجود بأنفاسه ليحيي مخلوقاً آخر؟ أيّ قربان يستحقّ أن ندفع مقابله أنفاساً؟ أيّ حليب تريدني أن أشتريه مقابل الأنفاس؟

- هذا فظيع حقّاً، ولكن . . . ولكن كيف يستطيع مولاي أن يطيق حياة لا يبلّل جفافها حليب النوق؟

- الكاهن لا يحيا بحليب النوق. الكاهن يحيا بحليب النبوءة.

- حليب النبوءة؟

- حليب ناقتك يميتني، وحليب النبوءة يحييني. حليب ناقتك سمومي، وحليب النبوءة ترياقي.

- الحقّ أنّي لم أفهم أبداً.

- عجّل!

- إذا لم يستطع مولاي أن يحييني، فإنّ الأمر الذي ألجأني لمولاي سيميتني.

- عجّل!

كان يحدّق في الفراغ بمقلتيه الغائبتين، وينصت لروايتي بلامبالاة استفزّتني حتّى أنّي توقّفت مراراً ظانّاً أنه نساني، أو تجاهلني، أو استخفّ بأمري، ولكنّه لا يلبث أن يتسيقظ من غيبته ليستحثّني على الاستمرار بتلك الكلمة الصارمة، المتبسرة، المشذّبة كنصل السيف: «عجّل!». رويتُ له السيرة كلّها. رويت له السيرة من أوّلها. سردت في الرواية أحداثاً ظننت أنّي نسيتها. استهللت أمري بسيرة النصل الملوّث بالدّم الطازج. أسهبت في وصف اللسان الشرس المرفوع إلى السماء دون أن أدري السبب. حدّثته عن الضياء. حدّثته عن وميض البدر في حدّ المدية المغمورة بدم القربان. حدّثته كما لم أحدّث أحداً. حدّثته بنهم لم أعرفه قبل ذلك اليوم في نفسي. استدرجتني الرواية فنسيت نفسي. نسيت نفسي لأنّي وجدت نفسي أحيا روايتي من جديد. وبرغم الوجع إلاّ أنّي اكتشفت، في الوجع، لذّة. باللّذة الغامضة انطلقت، فانقلبت مرثيتي أغنيةً. غنيتُ أغنيتي بمهارة أثارتني. وعندما انتهيت من الغناء، تهتُ. تهتُ زمناً قبل أن أنتبه لوجود الكاهن، وأستشعر وجودي في المكان. سكتُّ. سكتُّ فرأيت في مقلتيه ألقاً كالدمع. خُيِّل لي أنّي اقتنصت في السماء الصارمة، اللامبالية، إيماء، ظلاً خفيّاً، وحياً بعيداً. ولكنّي لم أستطع أن أفكّ طلسم الإيماء أبداً. انتظرت أن أسمع استجواباً. انتظرت أن أسمع شرطاً. انتظرت أن أسمع أمراً باستحضار قطعة من ثياب الخصم. ولكنّي لم أسمع استجواباً ولا شرطاً ولا أمراً. سمعت كلمة واحدة شبيهة في صرامتها، وقسوتها، واقتضابها،

وغموضها، بكلمة رسول الغار: «سرْ!». لم أفهم الأمر الصارم في الوصيّة الصارمة، فاستفسرت بإيمَاءة بلهاء. ولكن الكاهن لم يوضح.

أعاد الوصيّة مرّة واحدة، ووثب على قدميه بيسر لا يناسب شيخوخته. استدار ومضى. بعد قليل اختفى في غابة الصخور. استرجعت إبلي من صحراء «تادرارت»، وعدتُ إلى رحاب الحَرَم القديم يائساً. بعد زمن لم يطل تحدّث الرعاة بالنّبأ. قالوا إنّ حسناء «تاسيلي» ابتليت ببعوث الجنّ.

٢٠

تناقلوا النّبأ فقالوا إنّ أهل الخفاء غزوا الحسناء، في البداية، بالدعابة. دسّوا لها رأساً من رؤوس سلالتهم البشعة في قدر ينتصب على الأثافي، فأطلّ الرأس المريع وارتفع مع ذيول البخار ما إن انتزعت الشقيّة الغطاء لتجسّ الطعام. تبخّر البخار، ولكنّ الرأس في سحب البخار لم يتبخّر. بل تجسّم في تكوين له سيماء الصلصال، وكشّر في وجه المسكينة بعينيه الخاويتين ولسانه المشطور إلى نصفين كألسن الحيّات، ونفث ضحكة كريهةً كفحيح الأفعوان. لا أحد يدري ماذا حدث بعد هذا العدوان القبيح، لأن الحسناء أطلقت صيحة استغاثة قبل أن تنقلب على ظهرها. ولا أحد يدري كم من الوقت استغرقت هجعتها، لأنّ لا أحد سمع صرختها حتى يهرع لنجدتها. وعندما عاد القرين وجد جرماً ينتفض بالحمّى ويلجلج بالهذيان ولم يجد امرأته التي عرفها. استنجد بالجارة، وأرسل الصبيان لاستحضار الأقرباء، والأقرباء

استجلبوا العطار، والعطار استدعى الساحر، وكان على القوم أن يكافحوا طويلاً كي يستعيدوا في المرأة المطروحة بين أيديهم، المرأة القديمة التي عرفوها. استعادت الشقيّة عافيتها، ولكنّ سعادتها بعافيتها لم تطل، لأنّ دهاة الخفاء لم يمهلوها، فوضعوا في حجْرها وليدا مهولاً خاوي المقلتين، ملفوفاً بتجاعيد الشيخوخة، يلفّ حول رقبته لسانه المريع. دسّوا لها المسخ، واختلسوا منها وليدها بديلاً. لم يكتفوا بهذه الصفقة الظالمة، ولكنهم سلّطوا عليها سفهاء قبيلتهم الشقيّة فرجموها بالحجارة حتى أجلوها من النجع كلّه.

تدخّل القوم، وهرع لنجدتها الأب، واستجارت بأحضان القرين، ولكن لا أحد استطاع أن يجيرها من بطش الجنّ. خاطبها الأب فقال إنّه يستطيع أن يقيها شرّ المخلوقات التي تُرى، أمّا المخلوقات التي لا تُرى، فلا سبيل له إليها. قوّض الدهاة أركان الخباء، وأطلقوا وراءها في الخلاء جنداً، ففرّت مع القرين إلى عراء الشرق. قبل أن ينتصف الليل أقبل رسولهم فانتحبت بين يديه وتساءلت عن سرّ اختيارهم لها، وتوسّلت أن يعيدوا لها وليدها الضائع. ولكنّ الداهية تحدّث عن الصفقة فقال أن القوم سيعيدون لها الوليد إذا عاهدتهم بالخروج. تساءلت عن سرّ الخروج، واستنكرت أن تطرد من الوطن بلا سبب، فتهدّدها بسبّابته زمناً، ثم ترنّح بأنين كمواويل الشعراء قبل أن يتساءل:

- ألم تسحقي نملة؟
- نملة؟
- ألم تقتلعي نبتة؟
- نبتة؟
- ألم تكسري من الشجرة عوداً أخضر؟
- عود أخضر؟
- آثامك كثيرة كما ترين.

- وهل هذه آثام؟

- النملة بعث من بعوثنا، والنبتة ترياق لأوجاعنا، والعود الأخضر عضو حيّ من أعضاء كهنتنا.

- لو صدق مولاي فإنّ كلّ أهل الخلاء خطاة.

- وهل شكّت مولاتي في خطايا أهل الخلاء يوماً؟

- مَنْ منّا ليس آثماً؟

- الكُلّ، يا مولاتي، آثمون.

- ولماذا اختارتني قبيلتكم لتنزل بي القصاص من دون أهل الوطن أجمعين؟

- لستم أهلاً للوطن.

- من يكون أهل الخلاء إن لم يكونوا أهلاً للخلاء؟

- أصحاب الخلاء هم أولئك الذين سبقوا إلى الخلاء. أهل الخلاء هم الذين أحيوا الخلاء. وأعداء الخلاء هم الذين أماتوا الخلاء.

- عن أيّ موت يتحدّث مولاي؟

- انظري حولك وسترين بعينيك الجواب.

- تبدو الصحراء يباباً حقّاً، ولكن كهنتنا يقولون إنها كائن حيّ يا مولاي.

- مولاتي لا تدري أن الصحراء كائن حيّ بفضل سلالتنا لا بفضل سلالتكم.

- لا أفهم . . .

- قتلتم الصحراء بأيديكم، فنفخنا فيها الحياة من أنفاسنا.

- كيف ذلك؟

- تفسدون فنبني، تميتون فنحيي.

- لا أفهم.

- في عروقها يجري دمنا، في جرمها تندسّ أجرامنا، في سمائها تطوف أرواحنا. ولو تركناها لكم لماتت بين أيديكم ولمتّم

بموتها أيّها الأشقياء!
- ماذا يقول مولاي؟
- أنتم للوطن بليّة، لأنكم لا تعترفون إلاّ بما ترون، ولا تقتاتون إلاّ بما تنالون، ولا تحيون إلاّ بما تميتون. فكيف تستنكر مولاي إثماً على مخلوق لا يحيا إلاّ بإفناء كلّ مخلوق، ولا يهنأ إلاّ بإبادة كلّ كائن؟
- ما أبشع هذا!
- نحن للجور أعداء، ولا ننزل قصاصاً بمخلوق لم يستحق القصاص.
- بدأت أفهم.
- هذا وليدك بين يديك، فارحلي!
- يعلم مولاي عداوة المرأة للخلاء، فهل يستطيع مولاي أن ينبئني عن أمد الجزاء؟
- علم الغيوب من علم الخفاء.
- أولستم للخفاء أهلاً؟
- يوجد خفاء وراء كلّ خفاء.
- عجباً!
- الخفاء صحراء أعظم من كلّ صحراء، ولم تقف سلالتنا منها إلاّ على الباب.
- أخشى أنّي لن أحتمل البقاء في المنفى طويلاً.
- لتفريق الحجارة وقت، ولجمع الحجارة وقت.
- هيهات أن أفهم لسان الأحاجي؟
- عندما يحين الميعاد لن يصعب إبلاغ مولاتي.
انطلق رسول الخفاء بالقرينين، فقطع بهما مسيرة ثلاثة أيام في ليلة. في غلس الفجر وجدت المرأة نفسها إلى جواري.

٢١

هادنتْني كما هادنت الصحراء. هادنت الصحراء لأنّها أدركت أنّ الصحراء باتت لها قَدَراً منذ صار لها الجنّ، في ربوع أهلها، لعنة؛ فلم تجد مفرّاً من مهادنة الصحراء. هادنت الصحراء فهادنتني، لأنّها لم تجد مفرّاً من مهادنتي ما دامت لا تجد للفرار من الصحراء حيلة. لم تتنازل عن شكوكها في أمري أبداً، ولم تحاول أن تخفي هذه الشكوك يوماً، برغم أنها لم تجرؤ على مجاهرتي بالعداء يوماً. كانت منّي، دائماً، في شكّ؛ وكنت منها، دائماً، في شكّ. كانت منّي في شكّ لعلّة شكوكي، وكنت منها في شكّ لعلّة شكوكها. وربما كان أمر كراهتها سيهون لو استطعت أن أخفي عنها شماتتي ولو من باب الافتعال. ولكنّي لم أحسن الافتعال يوماً، كما لم أستطع أن أخفي يقيني أو نواياي يوماً. كنت أعرف أنّ العجز عن إخفاء النوايا ليس ضعفاً وحسب، ولكنه خطيئة مميتة يرتكبها كلّ مَنْ قرّر أن يجتمع إلى الناس

ليشاركهم ذلك الكنز الذي يسمّونه حياة، ولا يطيقون أن يشاركهم فيه أحد. ولكنّي لم أستطع أيضاً أن أفعل شيئاً أصلح به أمري، لأني لم أستطع أن أتنكّر لسجيّتي، فكان لي المنفى مصيراً لأنّ المنفى قدر في رقبة كلّ مخلوق عجز أن يحيا بين الخلق بناموس الخلق. عرفتُ أنّ الناس لا يغفرون حسن النوايا حتّى لو غفر لهم صاحب النيّة الحسنة ألف نيّة سيّئة؛ لأنّ من لا يخفي نواياه لا يخون نفسه، ومَنْ لا يخون نفسه، في عُرف الأقوام، مخلوق خطر وكريه وأجرب، ولا حيلة للخلاص من وبائه إلاّ الوأد في جوف الأرض، أو إبعاده إلى أبعد أرض. بلى. الكراهة هو الثمن الذي يدفعه الناس لكلّ مَنْ أحسن بالناس الظنّ. ولو استطعت الاحتيال على نواياي كما يحتال كلّ الناس، لما كشفتُ لها عن نفسي منذ أوّل يوم. ولو لم أكشف لها عن نفسي منذ أوّل يوم لما ضمرت لي تلك العداوة التي لم تكلّف نفسها عناء إخفائها منذ أوّل يوم. ربما لهذا السبب لم تفاجأ بشماتتي التي لم أحاول أن أخفيها عندما أجبرها أصحاب الخفاء على الارتماء بين يدي، لأنّ الدهاة لا يستنكرون الكراهة في أعين أولئك الذين يكنّون لهم الكراهة. ولكن ما لم تغفره لي أمر آخر غير الشماتة. ما لم تغفره لي هو ابتهاجي بانكسارها. ما لم تغفره لي هو انتهاكي لسرّها. ما لم تغفره لي هو استهتاري بضعفها. ما لم تغفره لي عجزي عن تجاهل حقيقتها. المرأة إمرأة ما ظلّت، في الأعين، طلسماً. المرأة إمرأة ما ظلّت قمقماً مختوماً. ولكنّ المرأة تفقد بكارتها ساعة يقف الرجل على سرّها. المرأة تفقد كبرياءها، وتضيع فتنتها، ساعة يُفتح طلسمها. لهذا السبب لا تسلّم المرأة جسدها إلاّ لرجل عرف سرّها. لهذا السبب فإنّ المرأة لا تُنتهك ساعة تسليم الجسد، ولكنّها تُنتهك ساعة اكتشاف الضعف. استسلام المرأة نتيجة، ولكن العلّة في اكتشاف الطلسم. لأنّ المرأة لا تفقد بكارة الجسد إلاّ إذا فقدت بكارتها المخفيّة في الروح. بكارة الجسد هي الثمن

الذي تدفعه المرأة للرجل الذي اكتشف فيها بكارة الروح. تدفع المرأة بكارة الجسد للرجل الذي استطاع أن يفكّ فيها الطلسم. البكارة هي الثمن الذي تدفعه المرأة لشراء سكوت الرجل الذي انتهك حرم القمقم برغم أنّها لا تغفر له هذه الخطيئة إلى الأبد. البلهاء يظنّون أنّ المرأة لا تستطيع أن تنسى أوّل رجل وهبته نفسها إكباراً منها لبكارة الجسد، ولا يدري هؤلاء أنّ المرأة لا تستطيع أن تنسى ذلك الرجل لأنّه أوّل من انتهك فيها ذلك السرّ المسمّى في ألسنة بعض القبائل «روحاً»، لا لأنّه أخذ منها بكارة الجسد. ولا تحتفظ المرأة في ذاكرتها بالرجل الأوّل وفاءً له، ولكنها لا تستطيع أن تنساه لأنّها لا تستطيع أن تغفر له. تستطيع أن تغفر له انتهاك الجسد، ولكنّها لا تستطيع أن تغفر له انتهاك القمقم.

كنتُ أتعمّد استفزازها ببسمتي فتتهدّدني بعينيها خلسة. وفي بعض الأحيان تجاهر بالوعيد فترفع سبّابتها في وجهي، فأتضاحك استخفافاً. أكشف عن سجيتي التي لا تطيقها سلالة النساء. أعرّي قلبي، وأطلق العنان لطفولتي، فيربدّ وجهها غيظاً، ويتلبّس ملامحها شحوب مخيف. كنت على يقين أنها ستدسّ لي في الطعام سُمّاً لو علمت أنّي السبب. يقيناً أنها ستخنقني بيديها أثناء نومي لو اكتشفت سرّ الكاهن. يقيناً أنّها ستميت الكاهن بيديها أيضاً لو علمت أنّ الكاهن كان وراء غزوة الجنّ. أطلقت ضحكاً عالياً كلّما تذكرت سرّي. ولكنّ اللئيمة استوقفتني في أحد الأيام لتقول:

– هل لك منّي بوصيّة؟

استفهمت بنظرة، فأوضحت:

– هل لعاشق الصحراء أن يتنازل مرّة ويقبل الوصيّة من فم امرأة؟

ترصّدتها بالاستخفاف فاكتأبت. اكتأبت فغزا وجنتيها الشحوب. أخفت شحوب الوجنتين باللحاف، ولكنّها لم تستطع

أن تخفي الحقد في عينيها :

- إيّاك إن تستهين بإمرأة!

سكتت. فرّت ببصرها إلى التّيه حيث يتدفّق سراب القيلولة فأبصرت كيف فاض في مقلتيها شقاء. استيقظت فيّ الشفقة فأشحت بوجهي. قالت :

- يقولون أن عشّاق الخلاء قوم حكماء، ولكنّي لم أسمع بوجود حكيم استهان بإمرأة، فاحترس!

٢٢

بموجب العهد الخفيّ أطمأنّتْ. أمنتْني فاستأمنتني الوليد.

لم تأتمنّي إلاّ عقب هزيمة أخرى مُنيتْ بها على أيدي الجنّ. فقد استغفلتنا مرّة، واكترت أحد الرعاة ليتسلّل بها إلى الوطن. استغفلتنا، ولكنّها لم تستطع أن تستغفل الملّة التي تسكن الخافية. فرّت من صحرائي، ولكن الدهاة اعترضوها على مشارف القبيلة بطابور من الجند الغرابيب المسلّحين بحراب النّار. أخفت الأمر، ولكنّ الراعي فضح سرّها فقال إنّ طابور الجنّ امتدّ يميناً إلى الأبد، واندفع يساراً إلى الأبد، ولم يبق لهما إلاّ الارتداد إلى الوراء، فارتدّا. ارتدّ بها في مساء أحد الأيام، فئستْ. يئستْ واستسلمتْ أعواماً. استسلمت كما يليق بالمرأة أن تستسلم. استسلمت فظنّنا، كما يظنّ كلّ البلهاء، أنّ استسلامها نهائيّ. انطلتْ عليَّ الحيلة وأيقنتُ أن استسلامها حقيقي. أيقنتُ لأن المرأة ربّة من ربّات التظاهر. صدّقتُ لأنّ المرأة لا تختلف عن ذلك الثعلبان الذي

ينفش جرمه، ويستلقي على القفا، متظاهراً بالهلاك ما أن يدركه الصيّاد. نسيتُ أنّ المرأة لا تستسلم حتى لو أرادت أن تستسلم. نسيت أنّ المرأة، كالحيّة، لا تموت حتى لو تظاهرت بالموت. نسيتُ أنّ المرأة، كالحيّة، أيضاً، لا بدّ أن تقتفي أثر قاتلها لتثأر لنفسها يوماً. في زمن الاستسلام المزعوم استودعتني الوليد لأعلّمه الصحراء، فصدّقتُ، ولم يخطر ببالي أنّها لم تفعل ذلك إلاّ إخفاء للمكيدة، وإمعاناً في تضييع الأثر. ابتهجت بالولد فذهبت به إلى المراعي. أردفته ورائي وسافرت به إلى ملتقى القوافل لأقايض الإبل والأوبار بالزاد والكساء. طفتُ به الكهوف وزرعتُ في قلبه حبّ التمائم التي حفرها أجداده على جدران المغاور. ثبّته على منكبيّ وتسلّقت به السفوح الجبليّة لاقتناص الضباب والأرانب والعظايات. صعدتُ به الصخور، وفتّشتُ الشقوق بحثاً عن أكنان الطيور، وطلباً لأعشاب الترياق، ونبوت الأجبال التي لا يستطعم اللبّأ إذا لم يتعطّر بشذاها. صار لي خلاً، صار لي أُنساً، صار لي قريناً صغيراً، ففهمتُ سرّ تعلّق الآباء بهذه الدمية المسمّاة طفلاً. فهمتُ الفتنة، ولكن الفتنة لم تنسني خلّي. أحببتُ الدمية، ولكن الدمية لم تغلبني، ولم تصر للقرين في قلبي بديلاً. لا أنكر أنّي حاولت أن أخون صادقاً. لا أنكر أني حاولت أن أخون قريني في نفسي. لا أنكر أنّي ظننتُ أنّي أستطيع أن أخلق من سليل القرين بديلاً للقرين، حتى أنّي صدّقت هذا الوهم زمناً. ولكنّي اكتشفت، فيما بعد، الأكذوبة، لأنّي اكتشفت أن ظمائي يزداد كلّما حاولت أن أشرك بالقرين قريناً. ولم أكن لأعترف لنفسي بالأكذوبة منذ البدء لو لم أقنع نفسي بالأكذوبة الاخرى التي لا ترى في الأبناء إلاّ استمراراً للآباء، حياةً للآباء، وتتجاهل الحقيقة التي تقول أن الأبناء ليسوا حياة آبائهم، ولكنّ الأبناء فناء آبائهم. تكشّفتْ لي الحقيقة كما تتكشّف النبوءة، فوجدتُ السبيل يرتدّ بي إلى القرين. لم أستطع أن أستردّه كما أردتُ أن أستردّه

بسبب وجود القرينة إلى جواره، ولكنّي حاولتُ أن أكتفي بوجوده إلى جواري، بعد أن أيقنتُ أنّ المخلوق الذي تمتلكه المرأة لا يُمتلك، ومعشوق المرأة لا يُعشق، وصاحب المرأة لا يُصاحب، لأنّ المرأة ذلك الإله الرهيب الذي يرفض أن يُشارك فيما يملك. فكنت أستعين على جفاء القرين بسلالة القرين، فأستجير من برود الأب بحيويّة الإبن، وأهرب من وجوم الوالد إلى مرح الولد، فانساب الزمان انسياب السيول، ولم أتنبّه إلى تدفّق الأيام كما تنبّهتُ لمسير الأيام في الأعوام التي كنت فيها، مع الخلق، ومع نفسي، في صدام. وكان بالإمكان أن ينساب هذا اللغز المسمّى زماناً إلى الأبد لو لم يأت ذلك اليوم الذي اقتنصتُ فيه البهمة الخفيّة التي وهبتها لقريني الصَغير.

٢٣

ما زالت تتعثّر عندما باغتّها. لم تتنصّل من سعابيب المخاط أيضاً عندما أمسكتُ بها. علقتْ بيديّ لزوجة وتوجّعتْ بثغاء عتعت شقيّ. خطمها أيضاً تعفّر بالتربان وذرّات الحصباء. فكّاها موسّمان بشهبة غامضة. بدنها ارتجف بين يدي فذكّرني برجف جلد البعير عندما يدفع عن نفسه غزو الذبان اللجوج. احتضنتها وهممت بالانطلاق، فأبصرتُ الأمّ تعتلي الرابية المجاورة وترقبني من عليائها باحتراس. رفّ ذنبها بشدّة وسلّطت نحوي حدقتيها الكبيرتين، الكحلاوين، الخفيّتين. سدّدت نحوي الحدقتين وسكنت. سكن حتى الذَّنَب، وهمدت في وقفتها فتبدّت صنماً من أصنام الحجارة. رأيت في عينيها بللاً، ووجعاً، وإيماء، وتهيّأ لي أنّي سمعت وجيب قلبها في ذلك السكون النبيل. انطلقتُ عبر السّهلِ في السبيل المضادّ. قطعت مسيراً بعيداً، ولكنّي، عندما التفتّ، رأيت شبحها ما زال يعتلي الرابية فيبدو، في البُعد،

كنصب من تلك الأنصاب التي يقيمها الأسلاف الأوائل ليدلّوا العابرين على السبيل.

وضعتُ لقياي بين يدي قريني الصغير، ولكنّه جسّها بفضول مجدوح بحذر في اليوم الأوّل، ولم يأمنها إلاّ بعد أيام. أمنها، وعبث بجرمها، فصارت بين يديه دمية لا يفارقها حتى عَندما يهجع لينام. يحتضنها طوال النهار، ويطعمها بحليب النوق بملاعق الأخشاب، ويختلي بها في العراء المجاور، وعندما يحين ميعاد النوم يضمّها إلى صدره، ويتسلّل بها بين ثنايا الأغطية. كان سعيداً، وكنت، بسعادته، سعيداً أيضاً. راق لي كثيراً أن أشاكسه كلّما استيقظ مبلّلاً بالبول: «أهذا بولك أم بول الجدي الشقيّ الذي تدسّه إلى جوارك في الفراش؟» فيتضاحك، وتتألّق مقلتاه الذكيتان بذلك الوميض الخفيّ الذي اعتدتُ أن أراه في عيون الممسوسين وبغاة المجهول. لم يكن يكتفي بإخفائه إلى جواره في فراشه، ولكنه اعتاد أن يحتضنه بين ذراعيه، ويحمله في تنقلاته إلى العراء، يتعثّر في مشيه، فيسقط بحمله. ينكفئ الغزال ويحشو خطمه في التربان، فيتنصّل، ويتشكّى بصوت مكتوم، وكثيراً ما حاول الإفلات. بل كثيراً ما أفلح في الإفلات. يقفز في الفراغ ذلك القفز المدهش الذي ورثه عن سلالة الغزلان. ولكنّه لا يفرّ. لا يمضي بعيداً. يخترق الهواء في قفز لا تلامس فيه قوائمه الأرض حتى يعلو جرمه في السماء مرّة أخرى، كأنه لا يعدو، ولكنه طيراناً يطير. كأنّه، إذا أفلت، سكن البرزخ الممدود بين السماء والأرض ككلّ كائن بهيّ. كأنّه يبشّر الكائنات الأرضيّة بأنّ الكائنات البهيّة لا يجب أن تتخذ من الأسافل وطناً إذا شاءت أن تتباهى بالبهاء، إذا شاءت ألاّ تفقد البهاء، إذا شاءت أن تصير لها السماء وطناً. ولكنّ الشقيّ لا يمضي في فراره بعيداً. يتوقّف على بُعد قريب، ولكنّ الجنّ تتلبّسه فينفر، ويتوتّر، ويرتجف كوتر مزموم. يلاحقه الصبيّ فينتصب برقبته في الهواء في كبرياء

الغزلان الكبيرة، ويبتعد إلى الأمام أشباراً. يلاحق الآفاق بقلق الغزلان الكبيرة، كأنّه يذكّر جلاده بقدرته على الفرار، كأنّه يذكّر بقدرته على الإنطلاق في الخلاء الأبدي إلى الأبد، كأنّه يجاهر بتفوّقه وقدرته على الإفلات إلى الأبد. ولكنّه يتهيّب، ويوسوس، ويرتدّ. الخلاء يردّه إلى الوراء، إلى جلاّده، إلى العبوديّة. لأنّه لم يعلم بعد ما علمت الغزلان الكبيرة. لأنه لم يدرك السرّ الذي يخفيه الخلاء في ثنايا الخلاء. لأنّه لم يعبر تلك المملكة المجهولة التي خُلقت لتكون لسلالة الغزلان وطناً، حتى يستطيع أن يستعير من مجهولها الشجاعة لعبور ممالكها المجهولة. المجهول ينتصر لأنّ الغزال الوليد لم يعرف، لم يكتشف، لم يعبر، فيتردّد، ويحتار، ويرتدّ. يرتدّ فيقع بين يدي مريده الصغير. يستسلم لحضن صاحبه، لينال على يديه أجناس تنكيل لم تألفها من أيدي الصبيان حتى جداء الماعز. لم يعتد الغزال الوليد تنكيل الخلق وحسب، ولكنه استمرأ الأمر إلى حدّ لم يطق فيه لفراق قرينه صبراً. كان يجثو عند قدميه في جلسات المساء حول موقد النار، ويتراكض وراءه في الخلوات المجاورة، ويسابقه، ويمازحه، ويقفز فوق رأسه ملاعباً، ويطارده في عدوه، ويرافقه حتى في خروجه إلى العراء لقضاء حاجته، ولا يفارقه حتى عندما يندسّ في فراشه لينام. لم يستطع هذا المخلوق الوديع أن يلهي الصبيّ وحده، ولكنه ألهانا جميعاً. ألهانا عن أنفسنا، وأنسانا استنفارنا، وخفّف عنّا وساوسنا، ووأد الشكوك بيننا، فغبنا عن همومنا، والتفتنا إلى جانب آخر كان غائباً عنّا برغم أنه كان دائماً في متناول أيدينا، ولكنّنا لم نكتشفه لأنّ شجارنا مع أنفسنا ألهانا، لأنّ نزاعنا مع الأغيار أخذنا وسلبنا وساقنا عنه بعيداً، فعرف كلّ منّا، في سرّه، أنّ السعادة ليست وهماً، عرف كلّ منّا أنّ السعادة ليست حتى بحلم، ولكنها كنز لا يحتاج أن نذهب في طلبه بعيداً، لأنها هبة بسيطة جداً، هبة نحملها بيميننا،

هبة نحملها في قلوبنا، ولكنّنا نسيناها في أيدينا بسبب الوساوس والبلبلة والشكوك، وظننا أنّها أبعد منالاً من نيل الواحة الضائعة، بل لم ننطلق يوماً لنعبر الصحاري الكبرى بحثاً عن «واو» المفقودة إلاّ ليقيننا بأنّ وراء أسوارها سنعثر على هذه الهبة الغامضة المسمّاة في لغة الأقوام: سعادة!

٢٤

لهذه العلّة لم أخف سعادتي. ذهبتْ بي العلاقة بين المخلوقين الصغيرين بعيداً فلم أَستطع أن أخفي، لسعادتهما، سعادتي. سرت وراء البراءة بعيداً فقادتني البراءة إلى نفسي التي أخفتها عنّي نفسي. استسلمتُ للبهاء البتول فزعزعني البهاء وأبعدني عن الاشتباك الأبدي. أدهشني الأمر، واكتشفت أعجوبة إسمها التخلّي. عبرت الوادي وشاهدت من حافته الأخرى قريني، فرأيته بعين لم أره بها قبل ذلك أبداً. أدركت لأول مرّة أني أستطيع أن أحيا إلى جواره دون أن أضطرّ إلى إقحام نفسي في نفسه، ودمج بدني في بدنه، وربط مصيري بمصيره إلى ذلك الحدّ الذي لم أطق عليه صبراً يوماً. أدركت، إدراكاً مبهماً، أن الإنسان الذي جاء إلى البادية وحيداً، لا يستطيع أن يحيا في البادية إلاّ وحيداً، وإذا شئنا ألاّ نجرّه إلى الشقوة، فينبغي أن نترك بيننا وبينه أخدوداً بدل أن نقحمه في نفوسنا، ونقحم بنفوسنا فيه. تركت للقرين

المجال لالتقاط الأنفاس، فرأيته سعيداً أيضاً. كان سعيداً لسعادة الوليد، وكنت سعيداً لسعادته. ولكن هل كانت الساحرة التي ترقد إلى جواره مخلوقاً سعيداً؟ لا أحد، بالقطع، يستطيع أن يدرك ما يمكن أن تخفيه تلك الجنيّة في فؤادها، لأنّ المرأة هي ذلك المخلوق الذي لا يستطيع أن يدرك ما يدور في فؤاده، فكيف يستطيع حتى أدهى الدهاة أن يتنبأوا بالأمر الذي تخفيه في قلبها؟

كانت بالطبع تتظاهر، أيضاً، بالسعادة. كانت أدهى من أن تجرؤ على الكشف عن نواياها الحقيقيّة، لا لأنها لا تريد أن تفسد علينا سعادتنا، ولكن ليقينها بأنّها لا تستطيع أن تفعل ذلك دون أن تفضح نواياها الحقيقيّة، وتقترف، في شرع الناس، شرّاً. لأن المرأة لا تطيق السعادة، لأنها أقدم عدوّ للسعادة. المرأة لا تطيق السعادة منذ صارت السعادة قريناً للبراءة. لهذا السبب لا يدهشني أمر كما يدهشني ظنّ أولئك البلهاء الذين يركنون إلى المرأة اعتقاداً منهم أن المرأة يمكن أن تجلب لهم السعادة. ولم تخيّب الجنيّة ظنّي هذه المرّة أيضاً لأني ضبطت في مقلتها الحقد على البهمة من أوّل يوم. ضبطتها متلبسة بتلك البسمة الخفيّة التي لا يقدر على فكّ رمزها إلاّ من احترق بنار المرأة طويلاً. كانت تختلس البصر إلى الغزال بين يدي الوليد فتبرق مقلتاها بالغيرة والحسد والإيماء الخفيّ. في الإيماء الخفيّ رأيتُ النوايا. لم ألتفت إلى الغيرة ولا إلى العداء في العينين، ولكن الإيماء لم يفتني. الإشارة في الإيماء لم تفتني. قرأتُ النيّة الخفيّة، ولكنّي لم أكن عرّافاً ولا داهية حتى أعلم حقيقة النيّة. استيقظ في قلبي القلق، وحاولت أن أخدع نفسي بتجاهل الأمر. ولكن الإشارة دائماً هي الإشارة، الإيماء دائماً هو الإيماء. نستطيع أن نتجاهل الإشارة، ولكنّ الإشارة لا تتجاهلنا. نستطيع أن نتغافل عن الإيماء، ولكنّ الإيماء لا يغفل عنّا. كنت أعلم أن السعادة هبة هشّة، لأنّها عابر لا يمكث في النجوع طويلاً. كنت أعلم أنّ السعادة كأنسام الشمال المبلّلة بالمطر

تهبّ مرّة، ولكنّ رياح القبلي تعقبها فتهبّ ألف مرّة. كنت أعلم سجيّة السعادة، لأنّي جرّبت أنّي إذا ملأت فمي بالضحك اليوم، فسوف أملأ فمي بالدموع غداً.

ولكنّي خالفت الناموس وتجاهلتُ. تجاهلتُ الأمر لأطيل عمر سعادتي. دفعتُ عنّي الإشارة لئلاّ تفسد العلامة سعادتي. قلت ما هو كائن فسوف يكون، ولن أستطيع لدفعه سبيلاً حتى لو أوتيت سلطان الجنّ وأهل الخفاء. تجسّستُ على عين الجنيّة كلّ صباح وكلّ مساء، وأيقنت أنّ الأمر واقع، وسعادتنا زائلة بلا ريب. ولكنّي تجاهلت الأمر، وحاولت أن أخفي النيّة الشريرة حتى عن نفسي. أخفيتها زماناً لم يطل، لأنّ العين الشريرة أصابت البهمة المسكينة، ففتّشنا في أحد الأيام عن البُهمة، فاكتشفنا أنّ البهمة قد فرّت من شرّ العين الشريرة.

٢٥

عرفتُ أنها ستفرّ. لم يداخلني الشكّ أبداً في أنّها ستفرّ. لم أكن في حاجة لانتحال حرفة العرّاف لأدرك أنها ستفرّ. رأيتها يوماً تعتلي كُدْية مجاورة، وتتفرّج على امتداد الخلاء بذلك الوجوم المريب الذي لا يُرى إلاّ في الأجرام التي قرّرت أن تهب نفسها للخلاء. لقد رأيت هذا الوجوم المريب في أبدان البعائر التي انتوت أن تهجر القطيع وتقطع الخلاء إلى برّ آخر، إلى برّ بعيد، إلى برّ مجهول. الرعاة يقولون إن البعائر تفعل ذلك عادة عندما تشتم رائحة السيول في أبعد الأوطان، فتعتزل قطيع الإبل، وتخلو إلى نفسها في الخلاء قبل أن تنطلق ليبتلعها الخلاء. ولكنّ البعائر في وجومها المريب لا تختلف عن المخلوقات التي ترى ما لا يُرى، وتنقطع عن بقيّة المخلوقات، وتعتصم بالصيام، وتسكن إلى السكون الأبدي المريب، لأن المخلوقات التي انتوت أن تنطلق لتهب نفسها للخلاء، مخلوقات لا تختلف عن قوافل الدهاة

الذين ينقطعون ويصومون ويكتئبون تأهباً لتلقي النبوءة.

البُهمة تلقّت النبوءة أيضاً، ففرّت بعد أيام.

لم أنتظر استغاثة الوليد لملاحقتها. رأيت في عينيه نداء أقوى من كلّ استغاثة. رأيت في عينيه وجعاً أصدق من الرجاء ومن الكلم. رأيت في عينيه عجزاً لا يمكن أن يكون إلاّ ذلك اللسان الذي ينطق بهول إسمه الفجيعة، فانطلقت. انطلقت برغم يقيني الخفيّ بعدم جدوى المطاردة. لم تكن تلك القناعة غامضة تماماً، لأنّ النظرة التي ضبطتها في مقلة الجنيّة كانت كافية لزرع النبوءة في قلبي. بلى، بلى. إيحاء العين الشريرة قال لي إني لن أدركها حتى لو طرتُ وراءها بجناحين، حتى لو استعرتُ من المجهول سلطان المجهول وطرت وراءها بألف جناح. الإيماء في العين أخبرني أنّ الجنيّة أقوى. بسمة الخبث أنبأتني بأنّ نوايا الخبث أقوى. إيماء الشماتة ألهمني بأنّ سلطان الشرّ أقوى، ركضت في الخلاء بجنون مسكون. ركضت في الخلاء كأنّي لا أطارد غزالاً، ولكنّي أفرّ من غول، أو مارد، أو وحش. ركضت طويلاً. اجتزت الوعوثة. دخلت ترباء الحزيز الرمادي التي تفترش الروابي الجنوبية، وتستولي على المرتفعات الكئيبة التي تتواصل في أحاضيض الأجبال العموديّة الصارمة. سقطتُ أرضاً. انكفأت على وجهي مرّتين. في الانكفاءة الأخيرة انحلّت عقدة لثامي. توقّفت. تلقّفت الهواء. ابتلعت الهواء ابتلاعاً. استعادتني العثرة. بالسقطة استعدت نفسي وأدركت مسّي. أدركت جنوني، واكتشفت أني لا أطارد طريدة، ولكنّي أنا الطريدة. اكتشفت أنّي لا أُلاحق ضالّة هاربة، ولكنّي أنا الضالّة الهاربة. اكتشفت أنّي تظاهرت بالركض وراء شاة الغزال، في حين فررت، في الحقّ، من بطش السعلاة التي تترصّدني في البيت. حدست بأن أمراً سيحدث. شممتُ رائحة كيد لم أخطئه يوماً. لم أحدس، ولم أشتم، ولم أحسّ، ولكنّي أيقنت. أيقنت لأنّ الإلهام الخفيّ لم يخنّي يوماً. أيقنت

لأنّي اعتدت أن أسمع من لسان الخفاء ما يخفيه الخفاء لا ما يقوله لسان الخفاء. أيقنت لأنّي اعتدت أن أصدّق ما يعجز اللسان عن قوله لا ما يتقن اللسان قوله. أيقنت لأنّي لا أحيا بالعقل، ولكنّي أحيا بالقلب. في تلك المرّة كلّمني القلب بالخطر، في حين تآمرت كلّ أطراف الإحساس وجاهدت لتخفي عنّي حقيقة أمري. ركعتُ أرضاً. هجعت على القفا. استسلمت للترباء الرمليّة اللميسة، فغمرتني أقدم أمّ بأقدم حنان. انتقلت سلاسة الخزّ إلى جسدي، وتسلّلت نبوءة الأجيال إلى دمي، وسرت الرسالة إلى صلبي، وتنزّلت السكينة إلى قلبي. ركنت إلى الأمّ، فهدهدتني الأمّ، وغسلتني من جنون المسّ، وطهّرت قلبي من لعنة اسمها البلبال. من جوفها بدأت أولد، وأحيا، وأكتشف. اكتشفت السماء العارية، الأبديّة، اللامبالية. اكتشفت الصفاء الخالد في السماء. اكتشفت الحلْم في السماء الصحراويّة الأبديّة. اكتشفت الحياء الخالد في السَماء الأبديّة. اكتشفت الكبرياء الخالد في السماء الأبديّة. اكتشفت التسامح الخالد في السماء الأبدية. اكتشفت السكينة الخالدة في السماء الأبديّة، فنسيتُ. ذهبت إلى السماء، فنسيت. نسيت كلّ شيء.

٢٦

لا أدري كم، بحساب الزمان، استغرق سباتي. ولكنّي وجدت، عندما استيقظت أنّ الصحراء تتغسّل بضياء الغسق، وقرص الشمس يميل إلى الغروب. من النسيان استعدتُ سيماء الأسماء الخالدة، وأوحت لي السماء بكبريائها، فاسترجعت الرسالة، وتذكّرت الضالّة الضائعة. أحكمت اللثام حول رأسي، وتعقّبت أثري طلباً لأثر الضالّة الذي أضعته أثناء فراري. قطعت مسافة طويلة قبل أن أهتدي إلى الأثر. تتبعتُ الأثر. عدت على عقبي مرّة أخرى سعياً وراء الأثر، ولكنّ الأثر انحرف جانباً، وسار بي في السبيل المؤدّي إلى المرتفعات الحجرية. أسرعتُ خوفاً من هجوم الظلمات، وانتظرت أن يستقيم الأمر وينعطف سليل السهول والصحاري الرملية في سبيل السهول والصحاري الرملية. ولكنّ الأثر لم ينحرف. القفزات تباعدت، وطار الجنّي في السبيل المضاد الذي يقود إلى الصحراء الجبليّة، فأيّ مخلوق

حلّ في بدن المخلوق الوديع حتى يتخلّى عن سجايا السلالة ويلتجئ إلى وطن لا تسكنه إلاّ سلالات الأغراب؟ أيّ قوّة سكنت البهمة البهيّة فضلّلتها وانحرفت بها عن سبيل الغزلان؟ أيّ سوء أصاب الغزال فتبلبل ففرّ إلى أوطان الودّان المسكون بأرواح الأجبال، بدل أن يهرع للاحتماء بربوع أرضه الساجعة المسكونة بروح السهول والبسابس؟ صار الودّان قدر الصحراء الجبليّة منذ تمخّضت الجبال فأنجبت في الأرض ودّاناً لتتخذ من جلده قناعاً. وصارت الغزلان قدر الصحراء السهليّة منذ تمخّضت السهول فأنجبت في الأرض غزلاناً لتتخذ من جلودها أقنعة. ذلك أن الجبال قرّرت أن تنجو من كيد الخلق فاحتالت على الخلق بالتنكّر في أجرام الكائنات لتفرّ من كيد الخلق. والسهول قرّرت أن تدفع عن نفسها شرور الخلق أيضاً، فقرّرت أن تنجو من شرور الخلق بالتنكّر في أجرام الأنعام. أقرّ ناموس الأزمان الأمر، ووضع بين الأجناس الحدّ، فصار مقدّراً على ملل الودّان، منذ ذلك اليوم، أن تهلك إذا تنكّرت لسليقتها وسلكت سبيل الغزلان، في حين كُتب على ملل الغزلان أن تهلك أيضاً إذا اختلّت وسلكت سبيل الودّان. فهل أضاع الغزال سبيل أسلافه الغزلان لحداثة عهده بالصحراء، أم أنّ البهمة انحرفت لسرّ آخر؟

اعترضت السهل أوّل رابية، وابتلعت مساحة الحزيز الأثر، ولكنّي لم أتراجع. بعد خطوات هوى المرتفع الحجري بشعبة احتوت رملاً سخيّاً، فانطبع حافر الطريدة في الخبّ بوضوح. أفضت شعفة الرابية إلى سلسلة المرتفعات، وبدأت الأرض تتسلّق الفراغ الأعلى لتتواصل في سفوح الأجبال المتعالية. في الآفاق الغربية استبدّ بالصحراء الأصيل، وزرعت شمس الغروب الفراغ بسيماء نبوءتها الخالدة، فقرأت الرسالة الخفيّة التي تستحثّني، بإيماء لا أدريه، أن أستعجل، لأنّها لا تنوي أن تخالف ناموسها الأبدي من أجلي إذا استمهلتني. هرجلتُ. هرجلت لأدرك

ضالّتي قبل أن يدركني الليل. هرجلت في درب مستقيم. استجبت للوسوسة في صدري فلم يخذلني نداء القلب. كنت أعثر أثناء الهرولة على الأثر مطبوعاً على رمال استقرّت في خبّ هنا، أو اعترضتها صخور هناك. وكثيراً ما استطعت أن أتبيّن الأثر بقطع الحجارة التي دهمها الحافر فتزحزحت عن مكانها. ولكن الوعورة ما لبثت أن وقفت في وجهي فتضاعف عجبي. تضاعف عجبي، واحترت في السرّ الذي يمكن أن يدفع بغزال لتسلّق أوعار لم تكن لسلالته أوطاناً وحسب، ولكنها كانت دائماً منفى.

تجهّمت الأعالي، وتسلّحت السفوح بأنصاب معادية كمخالب الوحوش. استعنت بالصخور وحاولت أن أتبيّن الآثار في أتربة احتضنتها الأنصاب، ولكنّ الأثر اختفى. زحفت إلى الأمام. استعنت بيديّ الاثنتين كي أصعد الامتداد العموديّ الصارم. تعاظم حجم الأنصاب وتضخّمت الحجارة حتى صارت، في بعض الأمكنة، بحجم كدية كاملة. تسلّقت. نسيت نفسي وتسلّقت. ثم. ثم توقّفت. توقّفت لأنّي أدركت جنوني. توقفت لأنّي تذكّرت استحالة أن يتطاول غزال في قمم جبليّة كهذه القمم حتى لو استعار روح ودّان. سخرتُ من نفسي، وقرّرت أن أسترخي. استجرتُ بنصب مكابر، وبدأت ابتلع الهواء الجبليّ السخيّ. بدأت أستردّ أنفاساً استنزفتها في رحلة المسّ، وأشاهد الحضيض السهليّ الوضيع. زفرت أنفاساً جزيلة قبل أن أكتشف نزيف اليدين. لم أكتشف نزيفاً في اليدين وحسب، ولكنّي وجدت أنّ الرجلين والساقين أيضاً داميتين. سلخت الحجارة الوحشيّة لحمي، ولكنّ المسّ في صدري أبطل الوجع، فتفقدتُ الدم في أطرافي، كما أتفقّد جراحاً في أطراف إنسان غريب. ثم... ثم احترقتُ بقشعريرة. لم تكن قشعريرة، ولكنها إيحاء عنيف له سلطان الصفعة. ترنّحتُ كمن تلقّى صفعة حقّاً. تزحزحت فرأيتها. رأيت الضالّة. رأيت البهمة تندسّ في تجويف

حجريّ ينتصب في مواجهتي على بعد خطوتين. كانت تحدّق في وجهي بعينيها الكحلاوين، الكبيرتين، الخفيّتين، وترتجف بعنف. من خياشيمها نزّ مخاط مغمور بحبيبات رمل. الوسم المزدوج الذي يشطر خطمها الى نصفين ازداد وضوحاً وعمقاً وسواداً. استمرّت تجثم في مواجهتي، وترتجف كممسوس. في مقلتيها لم أجد البهمة. في مقلتيها لم أجد البراءة. في مقلتيها لم أجد البهاء. ماذا أقول؟ الحقّ لم أقل ما يجب أن يقال. الحقّ أنّي لم أجد في عيني كائن ذلك المساء إلاّ العدوان. لا، لا. لم يكن ما رأيته في المقلتين اللئيمتين عدواناً، ولكنه كراهة. أجل، أجل. كراهة حقيقيّة. جنس آخر من الكراهة لم أره في عيون الأنعام، ولم أعرفه حتى في عيون الأنام. كراهة أفقدتني صوابي، لأنّي رأيت، في غمضة مذهلة، مخلوقاً آخر في عين المخلوقة التي ظننتها بهمة. رأيت ما يجب أن أراه منذ البداية. رأيت ما كان يجب أن أراه منذ أصابت عين الشرّ الغزال، فتبدّل الحال، وهاجر الغزال من جرم الغزال. فاتني أن مخلوقاً آخر حلّ في جرم البهاء، فقادني مخلوق الدهاء بعيداً في طريق التّيه. أدركت أخيراً سرّ التجاء الغزال إلى أوعار الأجبال. أدركت ان السلالات لا تخالف ناموس السلالات إلاّ إذا حلّت في أجرام السلالات مخلوقات أخرى غريبة عن طبيعة السلالات. أدركت أنّ البهمة المسكينة لم تعد بهمة منذ الوهلة التي نالتها العين، وها هو البرهان بين يديّ. ها هي عين الشرّ تتطلّع إليّ بعين الشرّ. ها هو مخلوق الشرّ يتنكّر في جرم البهاء. ألم يحذّرنا القدماء من بهاء البهتان؟ ألم يخبرنا الأجداد بأنّ داهية الشرّ «وانتهيط» لا يقبل علينا، ليستدرجنا إلى سبيل الشرّ، إلاّ في قناع البهاء؟

اقتربت من معقل الشرّ. اقتربت خطوتين. بدأت أرتجف. استبدّت بالبدن حمّى واشتدّت الرجفة في الأطراف. ركعت أرضاً. سقطتُ أرضاً فوقعتْ ركبتيّ على صلد الحجارة، ولكنّي

لم أستشعر ألماً. وجدتها الآن أمامي، في متناول يدي، تحدّق في وجهي وأحدّق في وجهها. تتنفّس في وجهي، وأتنفّس في وجهها. تنفث في وجهي حقداً، وأنفث في وجهها حقداً. تتوثّب لتثأر منّي، وأتوثّب لأثأر منها. لا أعرف كم من الوقت استغرقت المواجهة. ولكنّي لا أنسى ما حدث عندما مددت يدي لأستولي عليها. غاب البهاء الكاذب في عينيها في الحال، وحلّ في المقلتين العدوّ. حلّ في المقلتين المخلوق الأنثوي المزيّف الذي أثار اشمئزازي دائماً. كشفت لي الجنيّة التي ظننت أنّي تركتها ورائي فوجدتها تندسّ في البهمة أمامي. أحكمت قبضة الغلّ على رقبتها، ولكنّها أفلتت من قبضتي بوثبة مارد. فزّت من مكمنها، ودهمتني بجرمها في صدري بعنف، وطارت في الهواء. لم يستغرق الاشتباك غمضة. وجدت نفسي أستلقي على ظهري فوق الحجارة الوحشيّة، وأتابع جرماً يطير في الفراغ ليهوي في أخدود الأسافل. قفزت وراء الجرم، فكدت أسقط في الهاوية، تشبثّ بنتوء صخري، فدحرج بدني حجارة سخيّة تتابعت لتندفع في الفجّ العميق بغزارة وهرج. استعنت بصخور الفوهة لأتحرّر من الخطر. أدركتُ موقعاً آمناً، فحاولت أن أتبيّن طريدتي من هناك. بدأت العتمة تستولي على الصحراء، ولكنّ الضياء استمرّ يغمر الأعالي. في قاع الجرف استطعت أن أتبيّن الداهية. كانت تعتصم بصلد عموديّ، وترمقني باحتراس وغموض وكيد. استفزّتني نظرتها، فغالبت الغثيان. آلمتني نظرتها ففتّشت عن حيلة للدفاع عن النفس. حاولت أن أستعين بحجارة السفح للنزول الى الهاوية، ولكنّ الحجارة التي تشبثٌ بها تخلّت عنّي وهوت إلى الحضيض فتراجعت إلى الوراء. عدتُ إلى الحافّة، ولكنّ حمّى الدفاع عن النفس لم تمت في صدري. حمّى الدفاع عن النفس لم تمهلني، لأن الدفاع عن النفس، أيضاً، عدوان عندما لا يجد القوّة التي توقفه عند حدّه. لأنّ الدفاع عن النفس، أيضاً، عدوان أشدّ

عنفاً عندما يستعير من المغالاة زاده. لأنّ الدفاع عن النفس مبدأ لا يدافع عن النفس عندما يفقد صاحب النفس صوابه، ولكنّه لا يهنأ إلاّ بعد تحطيم نفس الخصم التي كانت سبباً في استفزاز الغول النائم المسمّى بلغة الأمم دفاعاً عن النفس.

حمّى الدفاع عن النفس انطلقت . حمّى الدفاع عن النفس تولّت أمر النفس. حمّى الدفاع عن النفس مدّت كفّ الدفاع عن النفس، فأسقطت فوق رأس العدوّ المتنكّر في جرم الغزال كوماً هائلاً من الحجارة. انتزعت الحجارة، ودحرجتْ أشرس الصخور، وحوّلتْ الهاوية للغزال قبراً حقيقيّاً. اندفن الجرم المسكون، وتوارى وراء كتل الصخور حتى تبدّى من العلوّ كضريح من أضرحة الأسلاف. نزلت الجبل، تقيّأت مراراً. تقيّأت لأنّي كنت على يقين أنّي لم أقتل في رحلتي غزالاً، ولكنّي قتلت إنساناً.

٢٧

وجدت الربع بلقعاً. عدتُ فوجدتُ، بدل البيت، الدِّمَن. تركت الخباء قائماً، مكابراً، يعاند الخلاء، وعدتُ لأجد الأرض كلها خلاء في خلاء. غلبني الإعياء في غزوتي فقضيت ليلي في حضيض الجبل، وعندما أشرفت على السهل في الصباح استشعرت الخطر في الحال. استشعرت الخطر قبل أن يقع بصري عل الخواء. استشعرت المكيدة قبل أن أرى بالعين آثار المكيدة. أيقنت أنّ أمراً قد حدث قبل أن أقف على الأمر الذي حدث. هوى قلبي في صدري ما أن بصرتُ بالخلاء يستبدّ بالخلاء. هوى قلبي إلى هاوية مجهولة لأني رأيت شماتة الخلاء عندما لا يعترض سبيله شيء. رأيت الخلاء عندما يندفع ليستولي على كلّ الأركان، فتتضاءل الأركان، وتستسلم بين يديه حتى السماء. رأيتُ الخلاء شرهاً، معادياً، لا يعترف بشيء، ولا يقبل أن يشاركه في امتلاك الصحراء شيء. رأيت الخلاء قوّة جنونيّة لم تخاطبني يوماً إلاّ

بلسان وحيد: «أنت وحيد، أنت وحيد، أنت وحيد!». هرع الخلاء لملاقاتي هذه المرّة أيضاً، وأسمعني نبوءته القاسية مرّة أخرى. تخلّى عنّي كلّ شيء في مرّة، فتضاعف يقيني بعزلتي، وغربتي، ويأسي. وجدتُ نفسي في قبضة الخلاء عارياً من جديد. وجدتُ نفسي مهجوراً من جديد. وجدتُ نفسي مقطوعاً من جديد. وجدت نفسي تائهاً من جديد. استمرأتُ الالتئام فنسيتُ قدري القديم. أخذني الجوار فغفلت عن المصير الأول والأخير. استسلمت للفخّ فسُرقت، وضُلّلت، وتهتُ. تهتُ عن نفسي وعن القرين... تهت بيد قرينة القرين، ووليد القرين، وبهمة وليد القرين. تهتُ قبل أن يهرع الخلاء لاستقبالي بنبوءة التّيه. تهتُ لأنّي ظننت أن القرين مخلوق قابل لأن يشترك في امتلاكه مخلوقان. تهتُ لأنّي نسيت أن القرين كالسلطان، كالكنز، كالحسناء، لا يقبل بالجبلّة أن يشترك في امتلاكه شريكان. للسلطان شريك واحد، للكنوز شريك واحد، للحسناء شريك واحد، للقرين شريك واحد. لهؤلاء مالك واحد لا شريك. لهؤلاء عاشق واحد لا شريك له، وها هو البرهان! ها هي الخدعة تكتمل، والجنيّة تفرّ بالقرين. يومها فقط أدركت حمقي. يومها أدركت خطيئتي. يومها أدركت أيضاً سرّ البهمة التي فرّت. يومها أدركت أن المرأة داهية لا يؤمن جانبها أبداً. يومها أيقنت أني لم أخطئ عندما رأيت فيها حيّة، وداهية، وجنّية. فهل أركن إلى التسليم؟ هل أسلم بهزيمتي؟ هل أستسلم للخلاء؟ هل أهب نفسي للتيه وأطعم الصحراء جسدي؟ هل تقبلني الصحراء وحيداً عندما أقبل على الصحراء بلا شرخ، بلا قلب، بلا قرين؟ هل أتخلّى عن اللبّ، عن القلب، عن القرين؟ هل من حقّي أن أتخلّى عن القلب وأذهب إلى صحرائي وحيداً؟ هل من حقّي أن أخسر حربي؟

انطلقتُ. انطلقت خلفهما. انطلقت مستدلاً على السبيل

بالأثر. فرّتْ بهما الجنّية على دابتين. جدّاً في المسير ليلاً. انطلقا بعد انطلاقي. ضلّلتني الجنّية بسليلتها، وفرّت في الاتجاه المضادّ. سخّرت الساحرة البهمة المسكينة لتقودني إلى وطن لم تدخله الغزلان يوماً. الآن تكشّف لي سرّ لجوء سليلة الغزلان إلى أوطان الأغراب. الآن أدركت سرّ دخول البهمة حرم الأجبال. تلك كانت حيلة الجنّية. تلك كانت مكيدة الداهية. كان ذلك طلسم الشرّيرة، فكيف ختلتني الشريرة؟

ساءلتُ رعاة الإبل في طريقي، ولكنهم قالوا إنّهم لم يروا في الصحراء مخلوقاً منذ أسابيع، فهل انسلّوا ليلاً؟ اعترضتني قافلة في مساء اليوم التالي، فأنبأني أصحابها بالخبر. قالوا إنهم باتوا ليلتهم في نجوع قبائل تاسيلي عندما أقبل على الأرباع مهاجر يقود ناقة تعتليها امرأة تحتضن وليداً، فهل أصدّق؟ هل تخلّى عنّي الكاهن؟ هل تقشّع جند الداهية؟ هل اهتدت الجنّيّة إلى حيلة مكّنتها من إبادة حماة الخفاء؟ هل تخفّت سليلة الحيلة في بطن ذلك الكائن الوديع لتفلت من الأسر يوم أفلت الكائن من الأسر؟ ارتددتُ على عقبيّ. إيحاء ردّني إلى الوراء. عدت إلى المراتع عَدواً، وضعتُ على البعير رحلي وانطلقت جنوباً. سافرت الليل كلّه، ولكنّي لم أبلغ «تادرارت» إلاّ في عشيّ اليوم التالي. ترجّلت في الأحاضيض، وتسلقتُ جلاميد الصلد ببراعة الودّان، ولكن غار الكاهن، في الأعالي، كان خاوياً. لم يكن خاوياً وحسب، ولكنه كان مهجوراً منذ زمن بعيد. غزت الرياح المدخل، وغمرت الأتربة أرة النار، ونسجت العناكب سعابيبها في الجوف، ودبّت الجعلان والهوام والزواحف على تربان أرضه. تنقلتُ بين صخور الشعاف يائساً، ثم نزلتُ الى السهول لأترصّد أهل هذه الأوطان الذين جرّبت من قديم خوفهم من الخلق، وفرارهم من كلّ وجه غريب. قضيت هناك ليال، وطاردت من القوم اشباحاً كثيرة، ولكنّهم فرّوا واختفوا في شقوقهم الجبليّة، ولم أفلح في ملاقاة

ذلك الكهل المجهول الملفوف في الخرق الجلدية البالية إلاّ بعد أيام. كان نحيلاً، نحاسيّاً، موسّماً بالعروق، مقنّعاً بلثام مريب، مستنفراً كتيوس الودّان، يمسك بعصا، ويحتمي وراء صخرة. ظهر فجاءة كما يظهر الجنّ، وانتصب في مواجهتي بقامة إنسان خُيّل لي أنه كان يترصّدني منذ زمن بعيد. دامت المواجهة طويلاً، فتكلّمت خشية أن يفرّ الشبح من وجهي كما فرّ كلّ مَنْ سبقه من أشباح:

- بين يدي مولاي يقف مملوك أقبل من وطن بعيد باحثاً عن مخلوق سكن الغار يوماً.

- سكنت الغار مخلوقات كثيرة...

- لم يخطر في بال مملوك مولاي أيّ مخلوق غير الكاهن، فهل بوسع مولاي أن يفيد المملوك الذي يقف بين يديه عن مصير مولانا الكاهن؟

- مولانا الكاهن سكن الغار حقّاً، ولكن هيهات أن أهب لنفسي حقّاً لم تهبه لي الأرض ولا السماء.

- تُرى عن أيّ حقّ يتحدّث مولاي؟

- كيف أدلّ غريباً عن مصير الكاهن اذا كنتُ لا أملك مصيري؟

- يُحسن مولاي بضيفه ظنّاً عندما يكلّمه بلسان الأوّلين.

- لا أدري كيف تريدني أن امتلك خبر الكاهن إذا كنت لا أستطيع أن امتلك خبري.

- هيهات أن أفهم...

- لا أرى إلاّ ما يُرى، ولا أسمع إلاّ ما يُسمع.

- مرحى! مرحى! ها هو مولاي يلقي في وجه المملوك بتميمة السعادة!

- السعادة؟

- ألا يؤكّد الكهنة بأنّنا لا يجب أن نرى إلاّ ما يراه الناس، ولا

يجب أن نسمع إلاّ ما يسمعه الناس إذا شئنا أن نحيا سعداء.

- ما معنى «سعادة»؟ ما معنى «سعداء»؟

- ها هو مولاي يعلّم مملوكه معنى السعادة. ألا يُقال أيضاً أن الإنسان الذي لم يسمع بسيرة السعادة، هو الإنسان الوحيد الذي عرف السعادة؟

- كيف يسمع أقوال الأجيال مَنْ لا يسمع إلاّ ما تقول له نفسه؟ كيف يستطيع أن يخبر بسيرة الكاهن مَنْ لم يبصر جرم الكاهن؟

- لا حيلة حقاً لاستنطاق المخلوق الذي خرج في طلب السعادة.

- لم أخرج يوماً في طلب شيء أبداً.

- هذا برهان آخر على فوز مولاي بالكنز الذي لا يهب نفسه لأولئك الذين يخرجون في طلبه.

- عن أيّ كنز يتحدّث الغريب؟

- الغريب يتحدّث بلسان الناس، والناس لا يتحدّثون إلاّ عن السعادة!

تراجع الى الوراء. توارى وراء الصخرة. فتّشت وراء الصخرة، ولكنّي اكتشفت أن الصخرة تسدّ جزع الوادي الذي ينحرف جانباً في مضيق صارم. في فوهة المضيق سمعت نداء، ولكنّي لم أر وجهاً:

- الكاهن اختفى يوماً كما سنختفي كلّنا يوماً. ألا يكفي الغريب أنّ الكاهن اختفى كما يختفي كلّ غريب؟

٢٨

لم أدرك حقيقة ما حدث في الأيام الأولى. لم أدرك حقيقة ما حدث إلاّ بعد مرور الأسابيع. همتُ على وجهي كالممسوس. عدت من رحلتي، ولكنّي لم ألتفت إلى بعائري. تركتهم يهيمون في البراري أيضاً، ولكنّي لم أخرج في طلبهم. لا أدري كيف كنت أقضي الأوقات، بل نسيت الأوقات نفسها، ولكنّ النسيان لم يستطع أن يسرق منّي الإلهام. الجنون لم يختلس منّي قبس أحد الأيام. وإذا كان ذلك هبة الخفاء حقاً فلا شكّ أنّي يجب أن أعترف لليأس بالبليّة التي زعزعتني وأعادتني إلى نفسي الضائعة. فقد أنبأني المجهول قائلاً إنّي فقدتُ القرين إلى الأبد، لأنّ المرأة إذا انتصرت على الرجل يوماً، فإنّها لا تستطيع أن تغفر للرجل هزيمته أبداً. وهي، إذا حقّقت على خصمها الغلبة، فإنّ انتقامها سيكون مميتاً ونهائيّاً. حذّرتني مرّة بغباء الاستهانة بالمرأة، وأدركت أن هدنتنا قد ماتت، ولا سبيل لي لاسترداد قريني إلاّ الأعجوبة.

ولكنّ الأعجوبة، أيضاً، فُقدت بفقدان الكاهن، وليس أمامي إلاّ الهزيمة، والعزلة، والضياع. هذه النبوءة هي التي أيقظتني وردّتني الى صوابي. استحضرت مخلوقاً غريباً في نفسي وخاطبت فيه سيرتي وحيلتي ومصيري. جادلته، ساءلته، استوضحته لكي يشير عليّ لو عاش حياتي. لم أبتسر أمري، لم أجهض الجنين بلجاجتي، لم أفسد عليه بلهفتي واستعجالي. لا أدري من أيّ ركن استعرت شجاعتي، ولكنّه لم يخذلني. انقشعت بلبلة الأيام الخالية، وسمعت بوضوح النبوءة: «الولد فخّ أبويه!». هذا ما قاله يقيناً، فكيف لم أهتد لهذا القول الصغير؟ كيف لم أستطع أن أفهم أنّ الأبناء أقدار الآباء، ولا بدّ من نيل الوليد لمن شاء أن ينال والد الوليد؟ أم أنّ هذه هي جبلّة النبوءة الخالدة التي لا تتكشّف بساطتها إلاّ بعد أن نسمعها جارية على ألسنة الأغيار؟ ألا يعني هذا أنّ الإنسان، كل إنسان، عرّاف بالسليقة، إذا عاند واستنطق في قلبه العرّاف؟

سافرت إلى «تاسيلي»، ولكني لم أنزل المضارب. اعتصمت بالسفوح الجنوبيّة، وترصّدت بُغيتي من هناك. لم أستجوب رؤياي حتى ذلك الحين، ولم أكن أدري ما يتوجّب عليّ أن أفعله يقيناً، ولكنّ وحياً مجهولاً كان يدفعني دفعاً للاستيلاء على الوليد، برغم أنّي لم أدرك بوضوح ما الذي سأفعله بالوليد. كنت مبلبلاً وضائعاً ومحموماً، فلم أفق من أشراك الإحساس الخفيّ الذي أنبأني بأنّي فقدت قريني الى الأبد، ولن تستطيع أن تعيده لي حتّى الأعجوبة. ولكنّ الظمأ كان أقوى من البلبلة، والحنين أشدّ من الخواء، والجنون أعتى من كلّ حمّى.

انتظرت حلول الغسق، لأنّ الغسق، في سيرة الأجيال، كان دائما تميمة مجهولة في مسيرة المجهول. الغسق ليس وقتاً ككلّ الأوقات. الغسق ليس طوراً من أطوار الزمان. الغسق ليس برزخاً يضع الحدّ بين آناء الليل وأطراف النهار. الغسق ليس رسولاً يقبل

على القبائل متنكّباً أحجية الموت أو بشارة الميلاد. ولكن للغسق سرّ آخر يجهله حتى الدهاة. للغسق رسالة أخرى أبى أن يتولّى وزرها حتى الرسل. للغسق طلسم استعصى على السحرة والعرّافين وحكماء الأمم. الغسق، كالواحة الضائعة، كنز مفقود. الغسق حينٌ في سيرة الزمان مفقود. ربّما لهذه العلّة ارتعدت أبدان القبائل مع حلول الغسق. ربما لهذه العلّة نازعت كاهنات القبائل الغسق وخلقت منه نفوس الأجيال بعبعاً وعدوّاً. ربّما لهذه العلّة توارثت السلالات الخوف من الغسق.

خرجتُ مع حلول الغسق، فأوقعه الغسق بين يديّ. تتبعته عن بُعد. أبصرته يتراشق مع الصغار بقطع الطوب. تسترّتُ بهوّة واد وضيع يشطر السهل الى قسمين. أسندتُ ظهري الى طلحة في قاع الوادي، وتظاهرتُ بملاحقة الآفاق على طريقة العرّافين. تظاهرت بترديد التمائم المهلكة التي تطرد جبابرة الجنّ من ساحة الغسق كما يفعل عتاة الكهنة. فرغ الصغار من منازعاتهم، وفرّوا استجابة لنداءات أمّهات خرجن وراءهم خوفاً عليهم من بطش الغسق. أقلقني أن تسبقني إليه الأمّ أيضاً فانتصبت واقفاً. رأيته يقبل صوب الوادي، فهرعت لملاقاته. أقعى تحت عليقة يابسة ليقضي حاجته، فهرجلت حتى وقفت فوق رأسه. لم أكلمه. لم أداعبه. لم أربت على رأسه المشطور بشعيرات نزقة تحاكي عرف الديك. مددت راحتي فتبدّت فيها حبّات التمر. لم يهجم على التمر برغم اشتهائه للتمر. أبصرت الشهوة في عينيه. أبصرت ذلك الوميض المدهش الذي لا يُرى إلاّ في عيون الممسوسين أو المسكونين. أبصرت ذلك الإيماء الخفيّ الذي يستثير الشفقة، لأنه ينبئ أن صاحبه سيشقى لأنه ينتوي أن يذهب في الصحراء بعيداً. يستثير الشفقة لأن المسكين لا يدري الأهوال التي تنتظر كلّ من رام أن يذهب في سبيل الصحراء بعيداً. أحسست نحوه، في تلك الغمضة، بالشفقة أيضاً. كان قلبي ينزف ويفيض بالإشفاق كلّما رأيت في

عيني هذا الشقي الصغير هذا الإيماء القاسي. كنت أخاطب نفسي، وأسائل المجهول عن سرّ رجم الأبرياء بلعنة الشقوة. كنت أقول إن الإنسان يستطيع أن يتساهل ويرتضي الشقاوة قدراً، ولكنّه لا يستطيع أن يجد تفسيراً واحداً لهذه اللعنة عندما يراها معلّقة في رقاب الأطفال.

ابتسم، فانقشع همّي. ابتسم قبل أن يتناول حبّات التمر فزال إحساسي بالشقاء. تناول التمر، ولكنّه لم يلتقم التمر. تساءل دون أن يتراجع في عينيه الإيماء الخالد:

- ظننتك ستأتيني بالجدي المفقود.

- الجدي المفقود؟

- ألم تخرج في طلب الغزال؟

اختنقت بغصّة ما أن ذكّرني بالغزال. كدت أقول له إن الغزال مخلوق لا يعود الى الوراء أبداً. كدت أقول له أن الغزلان سلالة لا تقع في اليد التي أفلتتها، لأنّها تؤثر أن ترمي بنفسها الى التهلكة على أن تقع مرّة أخرى في ذلك القيد الذي أفلتت منه مرّة. ولكنّي ابتلعت غصّتي، وقلت له ما يجب أن يُقال:

- لقد استرجعت من الصحراء الغزال، ولكنّي لم أجد في الصحراء صاحب الغزال!

رفع رأسه نحوي مستفهماً، فأخذته من يده، وقطعت به الوادي متجهاً نحو الضفّة الأخرى. الضفّة المعاكسة لضفّة القبيلة. الضفّة التي تفترشها حجارة رمادية صارمة تمتدّ لتلتئم بسفوح الجبال من ناحية الغرب، وتستوي جنوباً لتتواصل في الصحراء الأبديّة. قلت له إني أدركت غزالته، ولكنّ فرار صاحب الغزال اضطرّني أن أستبقي الغزال في عهدة رعيان القطعان المجاورة الى حين أعود بصاحب الغزال ليستعيد من الرعاة عهدته.

تمادت بسمته الشجيّة فشملت وجهه كلّه. حجل على رجل واحدة فرحاً، واشتدت قبضة أصابعه على أصابعي، وأسرع

ليلاحقني ويجاري سيره سيري، وساءلني كثيراً، فأيقنت أنه لم يطمئن وحسب، ولكنّه عاد طفلاً سعيداً كما عهدته يوماً.

في ناحية الغرب، حيث تنتشر الأخبية، اختنق الغسق بنبوءته المجهولة، وبدأ يتنحّى ليسلّم الزّمام بيد قرينه المغيب.

٢٩

تركته بجوار الأمتعة ما أن بلغنا المراعي، وذهبتُ لأبحث له عن غزال عند رعاة المراتع المجاورة. قرّرتُ أن أقلب له الأكذوبة حقيقة، لأنّي لم أستطع أن أكشف له عن الحقيقة. قرّرتُ أن أضع بين يديه غزالاً مستعاراً بدل الغزال الفقيد لأنّي لم أحتمل أن أراه شقيّاً. قرّرتُ أن أفعل المستحيل لئلاّ أرى في مقلتيه الإيماء القاسي، لأنّي كنت على يقين أنّي سأكون سعيداً أيضاً عندما أراه سعيداً. عند رعاة القطعان المجاورة وجدت الودّان، ولكني لم اجد الغزلان. أحد الرعاة دلّني على راع قديم قال إنه يملك من الغزلان قطيعاً حقيقيّاً. الراعي أخبر أيضاً أنّ الشيخ لا همّ له إلاّ اقتناص الغزلان وتربيتها، ولكنه أضاف أنه يشكّ أن أفلح في الحصول على غزال من قطيع مخلوق غريب الأطوار كذلك الراعي العجوز الذي بدأ الأمر تسلية، ولكنّه انجرّ مع الزمن فنسى نفسه، وأهمل إبله، فضلّت وتفرّقت في البرية، ولم يبق له في

دنياه إلاّ الغزلان. لم أصدّق رواية الراعي إلاّ بعد أن وقفت فوق رأس العجوز في الوادي المجاور. كان عريقاً، شاحباً، مكبّلاً بالتجاعيد، ملفوفاً بعروق كالحبال، ينحني فوق غزال عند ركبتيه، ويضمّ إلى صدره بهمة غزال أخرى، بركت إلى جواره غزلان تجترّ كما تجترّ الأغنام، وانتشر تحت أشجار الطلح قطيع كامل، أفلا يكون الرجل جنّاً يتنكّر في ثياب الإنس؟ أيعقل أن تأمن هذه الأنعام المسكونة مخلوقاً صحراوياً لو لم يكن مسكوناً مثلها؟

تذكرت رواية الراعي عن عشق العجوز لمخلوقاته، فلم أجد للاحتيال عليه سبيلاً غير نبذ الاحتيال:

- أقبلت على مولاي من المرعى المجاور لآخذ من أغنامه شاةً على سبيل الإعارة، فإن أبى مولاي ابتعتها من مولاي ابتياعاً، فإن أبى استغفلتُ مولاي وسرقتها، فإن لم أجد لسرقتها سبيلاً، نلتها من بين يدي مولاي بالقوّة. فبأيّ كلمة يستضيف مولاي الغريب الذي يقف بين يديه؟

شيّع نحوي بصراً كابياً: عيناه غائرتان، وربما خاويتان، ولكنّ الخواء فيهما هو الذي استفزّني وأيقظ في قلبي الوجل المجهول الذي يتلبّسنا عندما نلتقي أولئك الذين انقطعوا في الخلوات لأمد طويل. لم أنتظر أن يستسلم بيسر، ولكنّي سمعت جواباً لم أنتظره:

- إذا عاهدني الضيف الجليل بإبعاد نصل النحر عن رقبة ذريتي، فإنّ صاحب الذرية لن يبخل بالذريّة على غريب أقبل في طلب الذريّة!

أجبته في الحال:

- عهداً بيني وبين مولاي أنّي لن أضع نصل النحر على رقبة الذريّة!

في الحال أيضاً شيّع في وجهي العطيّة. رفع البهمة الناعسة على صدره بيديه الملفوفتين بالعروق والجفاف وعراك الزمان،

ليضعها بين يديّ .

عدت للصغير بالبهمة قبل حلول المغيب .

٣٠

أحكمتُ القيد في رجل البهمة الخلفيّة، وشددته إلى اليد الأماميّة، فرأيتُ في عينيه ارتياباً. استفهمتُ بإيماءة فانتكس برأسه حياء، ولكنّ لسانه تكلّم بالجسارة:

- هذه ليست غزالتي!

شبك يديه وراء ظهره، وحرث الكثكث بإبهام رجله اليمنى، واختلس نحوي نظرة ماكرة ليجسّني، وعندما أبصر الاستفهام في عينيّ، أومأ بسبّابته إلى صدغه، فتضاحكت. فهمت سرّ ارتيابه فتضاحكت. تذكرت الوسم الممتع المطبوع على فكّي بهمته الفقيدة فتضاحكت إخفاء للحقيقة، وإمعاناً في تضييع الأثر. لم افتعل الضحك لأخفي الحقيقة وحسب، ولكن لكي أمهل نفسي لابتداع الأكذوبة. الأكذوبة التي لا تختلف عن الحقيقة كثيراً، لأنّها تتحجّب وراء الحقيقة. لا تتحجّب وراء قناع الحقيقة وحسب، ولكنها كثيراً ما تستعير دور الحقيقة. يروق للأكذوبة أن تستعير

دور الحقيقة، لأنّ الحقيقة أيضاً كثيراً ما تستعير دور الأكذوبة. الانتحال المتبادل لاحتلال الأوطان بين الأكذوبة والحقيقة يجعل من القرينتين توأمين حميمين وينفي عنهما النزاع المزعوم الذي يراه البلهاء خصومة خالدة.

أغاثتني الأكذوبة بسيرة من سيرها الحقيقيّة، فحدّثته بلسان السيرورة. قلت له إنّ كلّ شيء في الصحراء يسير ويتبدّل ويتلوّن. قلت له إنّ الوليد يخرج من بطن الأمّ عارياً، ولكنه لا يبقى عارياً إلى الأبد، لأنه لا يلبث أن يلبس شعراً، ثم يجيء زمن آخر يستبدل فيه الشعر لونه، ثم يجيء زمن آخر يتساقط فيه شعره ويتعرّى من جديد. قلت له إنّ الغزلان أيضاً مخلوقات لم تسقط من حسبان الزمان، ففعل بها ما اعتاد أن يفعله مع بقيّة الأنام: تبدّل الوسم في فكّ الغزال، كما تبدّل جرم الغزال نفسه خلال هذه الأيام. تكلّمتُ كثيراً، وسمعت الأكذوبة في لساني تستقيم، وتتسلّط، وتنتحل دور الحقيقة. رأيت أكذوبتي تتحوّل في عينيه إلى حقيقة، فصدّقتُ الأكذوبة، وأنكرتُ الحقيقة.

في الصباح طاردني بنظرته الماكرة خفية، ففهمتُ الإيماء في الحال. لم يكن أمراً عسيراً أن أبصر في المقلة الخجولة الوميض المجهول الذي ينبثق في مقلة كلّ مخلوق إذا ضاق به المكان وانتوى الإفلات. لم يكن عسيراً أن أقتنص في الوميض تلك الإشارة الخفيّة التي رأيتها مرّة في مقلة البهمة عندما اعتلت الرابية وحدّقت في امتداد الخلاء بذلك الحزن الموجع الذي سبق فرارها إلى الأبد.

سألته ممازحاً:

- هل تنوي أن تهجرني؟

ابتسم، ولكنّه لم يجب، فداعبته مرّة أخرى:

-لا حاجة بك لأن تفرّ منّي كما فرّت منك البهمة. يكفي أن تمهلني قليلاً لتجد نفسك في أحضان أبويك!

ابتسم. ابتسم ابتسامة أخرى. اختفى المكر وحلّ في الابتسامة

الفرح. قمتُ لأسرّج البعير، وسافرت به إلى طرق القوافل. هناك مكثنا نهاراً وليلة قبل أن تقبل أوّل قافلة. تلاعبت بها ألسنة السراب طويلاً قبل أن تبلغ مفترق الطرق. في المقدّمة سار المارد الصارم حافياً، يعلّق نعليه حول المنكب الأيمن، ويشدّ زمام القافلة الى المنكب الأيسر. على رحل البعير الأمامي جلس ربّ القافلة: رجل قصير القامة، يميل الى البدانة، يتقنّع بلثام رماديّ، أفطس الأنف، في عينيه يتألّق خبث الثعالب، واستنفار أهل التجارات.

توقّفت القافلة فاستأذنت للاختلاء بربّ القافلة على انفراد. تفحّصني بفضول قبل أن يترجّل عن البعير. خطونا عبر الخلاء مسافة قصيرة. توقّف بجوار شجرة طلح وتطلّع في وجهي مستفهماً. قرأت في وجهه تبرّماً وضجراً، فرأيت أن أبدأ قبل أن يستنفد العابر صبره:

- الحقّ أنّ المجاعة يا مولاي...

ولكنّه قاطعني بصرخة معادية:

- احترس! لا تتحدّث عن المجاعات أبداً! لا تبرم ملّة الصحراء صفقة قبل أن تملأ آذاننا بالشكوى من المجاعات، كأنّ المجاعة قدر الصحراويّين وحدهم، وليست قدر كلّ الأوطان!

- مهلاً مولاي، مهلاً!

- لا تتحدّث عن الجوع إن كنت تريد أن تبرم معي صفقة.

- الحقّ أنها ليست صفقة.

- ليست صفقة؟

- أردت أن أتخلّى لمولاي عن ذلك الوليد الذي يحتضن بهمة مقابل ثمن زهيد.

- ثمن زهيد؟

- بالمجّان إن شئت!

- هل قلت بالمجّان؟

- أردت أن أقول بأبخس الأثمان.

- ألا تدري أن ابتياع صبيان ملّتكم صفقة خاسرة؟
- لا أدري عن أيّ خسارة يتحدّث مولاي.
- أهل الصحراء سلالة لا تركن إلى الديار أبداً. سليل الصحراء كسليل الغزلان الذي يحتضنه ولدك بين ذراعيه لا بدّ أن يفلت يوماً.
- لن يفلت، يا مولاي، اذا أكل خبز الأوطان التي تتوسّد شطآن الشمال!
- وهل في خبز أوطان الشمال ترياق لعلل الحنين؟
- بلى يا مولاي. في خبز الشمال ترياق إسمه النسيان.
- ماذا تقول؟
- أطعموا أسراكم خبزاً شمالّياً بسخاء، وسترون أنهم سينسون، سترون أنهم سيشفون بأسرع مما تتخيّلون.
- لا تنتظر منّي خبزاً أو تموراً. لا أحمل في متاعي إلاّ تبراً.
- لا يُشترى من القافلة، إلاّ ما تحمله القافلة.
- سأدفع لك حفنة. لن أدفع لك أكثر من حفنة لأنّ ولدك سيفرّ يوماً، كما سيفرّ الغزال الذي يسكن بين يديه.
- إذا لم يبخل عليه مولاي بالخبز فلن يفرّ أبداً. فليكن مولاي على يقين.

سكب في طرفي لثامي قبضة من هباء التبر، فسلّمته الولد. سلّمته الولد بعد أن وشوشتُ في أذنه قائلاً إنّ ربّ القافلة سيحمله الى مضارب الأهل في «تاسيلي».

٣١

أجلسه المارد الصارم على رحل فوق بعير يسير في ذيل القافلة، فتطلّع إليّ بامتنان. دفع لي امتناناً جزاء جرمي. دفع لي امتناناً جزاء جرمي، لأنه لا يدري. دفع لي، جزاء المكيدة، امتناناً لأنّ البراءة تأبى إلاّ أن تحصّن الأبرياء فلا يدرون ولا يؤتون بما ينسج ضدّهم علماً، لأنّ العلم بالمكيدة قصاص، والجهل بالمكيدة خلاص. الأبرياء يتحصّنون من مكائد الأغيار ببراءتهم، لأنّ العلم بالمكيدة هو المكيدة، لأنّ العلم بالمكيدة أسوأ من المكيدة. لم يجزني ببسمة الامتنان وحسب، ولكنّه طوّق بهمته بيسراه، ولوّح لي بيمناه مودّعاً. اختنقت بالغصّة لأنّي لم أغفر لنفسي غدري. غفرت لنفسي كلّ شيء كما يغفر كلّ إنسان لنفسه كلّ شيء. غفرت لنفسي نحر ذوي القربى عندما وقفوا في وجهي ليمنعوني من الوصول إلى شرخي الحميم. غفرت لنفسي نحر الأب عندما حاول أن يردّني عن القرين. ولكنّي لم أستطع، في ذلك اليوم،

أن أغفر لنفسي مكيدتي ضدّ الوليد المسكين. فهل صلة القرابة هي العلّة؟ كلاّ. هل بنوّة الضحيّة للقرين هي العلّة؟ كلاّ. هل صداقتي بالضحية هي العلّة؟ كلاّ. هل تململ في صدري السرّ أخيراً فعرفت تلك العاطفة الغامضة التي تسميّها القبائل حبّاً؟ كلاّ. هل يُعقل أن أعترف بحبّ آخر غير حبّي الأبدي للقرين؟ كلاّ، كلاّ. اختنقت بغصتّي طويلاً. اختنقت بغصّة أقوى من عَبْرة الدمع، وكان عليّ أن أتلوّى وأتوجّع وأنزف قبل أن أدرك سرّ فعلتي: لم أغفر لنفسي، لأنّي دفعت مخلوقاً بريئاً إلى العبوديّة. لم أغفر لنفسي فعلتي، لأنّي خنت نفسي لأوّل مرّة، ووضعت الأغلال في عنق مخلوق لا يدري شيئاً عن الأغلال. لم أغفر لنفسي لأنّي دفعت بمخلوق بريء إلى الهاوية التي لم تكن حياتي كلّها إلاّ فراراً منها. وجدته إلى جواري سعيداً، فصيّرني، بسعادته، سعيداً، فلماذا قرّرت أن أفسد كلّ شيء، وأرمي به إلى فم الهاوية؟ ألم يكن أهون لو جررت المدية على نحره؟ ألم يكن الموت مصيراً أهون بما لا يقاس من الذلّ؟ ولكن... مهلاً، مهلاً، مَنْ هو الأبله الذي قال إنّ العبوديّة ذلّ؟ من هو الطاغية الذي سنّ للصحراويّين نواميسهم القاسية التي لا ترى الحياة خارج حدود الصحراء إلاّ عبوديّة؟ هل ظنّ ذلك الطاغية انه اشترى لهم السعادة بحريّة صحرائه القاسية؟ ألن تكون الحياة أيسر عندما نحياها كما يحياها كل الخلق؟ ألن يكون عبيد الأرض الذين اختاروا الركون إلى الأرض أدهى في الخيار؟ ألن تكون حرية الصحراء هبة جنونيّة ما دام المخلوق الذي يعتنقها يذهب إلى الحدّ الذي يضطرّ فيه لأن يتحرّر من نفسه عندما لا يجد ما يتحرّر منه؟ ألم أحسن صنيعاً، دون أن أدري، عندما وضعت سليل الإنسان بيد الإنسان الذي يستطيع أن يحقّق له حياة الإنسان؟ ألا نحسن صنيعاً عندما ندع عقال العقل جانباً، ونفعل ما يوحيه لنا القلب؟

تابعتُ القافلة عبر الخلاء الخالد يومها، ورأيت السراب في

الآفاق يهرع لملاقاتها، فيغرقها في غمره اللئيم. مددت يدي وفككتُ الرباط في طرف اللثام، فتلألأ الهباء بإغواء. سكبت التّبر في راحة الكفّ، فتلقّفه النسيم. بدأ يبدّده في الهواء. بدأ الريح يتناهبه ويبدّده في الهواء كما اعتاد أن يتناهب ويبدّد حفنات الرمل التي كنت أستبقيها في راحة يدي زمن الطفولة لأتسلّى وأتعجّب وألهو.

التَهَمَ الريح الهباء بشَرَه، وعندما بدّد آخر ذرّة هباء توقّف، فعمّ، في الخلاء، سكون كالموت.

٣٢

لم أنعم بالسكينة لأنّ حُجّتي لم تصمد طويلاً. هاجمتني الوساوس، وفقدتُ الغفران المزعوم. أيقنت أنّ الإنسان يستطيع أن يحتال على أخيه الإنسان، ولكنّه لا يستطيع أن يحتال على نفسه. أيقنت أنّ الإنسان لا يستطيع أن يحتال على سرّه الذي يجري في الدم حتى لو أفلح في الاحتيال على نفسه. لقد صَدَقْتُ عندما أوصيت صاحب القافلة بإطعام الوليد خبز الشطآن الشماليّة إذا شاء أن يميت في قلب الشقيّ الحنين إلى الخلاء، ولكنّي كذبتُ على نفسي عندما قلت لنفسي إن الحياة أيسر عندما نحياها كما يحياها الخلق. كذبتُ لأنّي تعمّدتُ أن أخفي عن نفسي الشقّ الثاني من الحقيقة. كذبتُ لأنّي لم أقل إنّ الحياة أيسر عندما نحياها كما يحياها الخلق بشرط أن ننتمي الى ملل الخلق. بلى، بلى. الخلق ملّة والصحراويون ملّة أخرى. خلق كلّ الأوطان سلالة، وأهل الصحراء وحدهم انحدروا من سلالة أخرى. أهل الأوطان

انحدروا من سلالة الإنسان، وأهل الصحراء انحدروا من سلالات الجانّ. أهل الأوطان اختاروا بادية الأوطان، وأهل الخلاء فرّوا للحياة في خافية الأوطان حيث يحيا أسلافهم الجانّ. لهذه العلّة لا يرى أصحاب الصحراء ما يراه أصحاب الأوطان. لهذه العلّة لا يعتنق أصحاب الصحراء، ما يعتنقه أصحاب الأوطان. لهذه العلّة يحيا سليل الصحراء عابراً، في حين سكن ابن الأوطان إلى تراب الأوطان. لهذه العلّة فرّ الصحراويّ مطارداً بلعنة لا بدّ أن تأخذه من نفسه عندما لا تجد ما تأخذه من يده، في حين تنعّم صاحب الوطن بالسكينة لأنّه وهب نفسه للأرض بدل أن يفرّ من الأرض. فكيف سوّيتُ، بزعمي، بين الذين يعبرون، والذين يسكنون؟ كيف منحت لنفسي حقّ الساحر ورأيت أنّي قادر على خلط الماء بالزيت؟ أجل. كنت سأحسن الصنع حقّاً بفعلتي لو كان الوليد من طينة أخرى لا علاقة لها بطين الصحراء. كنت سأفلح في إسعاد الفقيد حقّاً لو وُلد الوليد من جوف آخر غير جوف الصحراء. كنت سأتحرّر من وساوسي حقّاً لو كان المخلوق الذي دفعت به الى العبوديّة من سلالة أخرى غير السلالة التي تعتنق لعنة أبديّة اسمها الحريّة. ولكن أيّ عزاء يتستّر بعيداً في الجؤجؤ؟ لماذا لم أعترف لنفسي بانتظار المخلوق الذي لم أنله بديلاً عن المخلوق الذي أضعته؟ لماذا تناسيت أنّي لم أفقد إلاّ لأنال؟ لماذا استغرقتني الأحزان فتوهّمت أنّي أجرمت بفعلتي في حين لم تكن مكيدتي إلاّ القربان؟ لماذا تجاهلت نواياي الحقيقيّة وحاولت أن أقنع نفسي بنبذ ناموس المرأة التي لا تهجر رجلاً في هذا الوادي إلاّ إذا انتظرها في الوادي المجاور الرجل البديل؟ لماذا لا أكشف عن وجهي، وأعترف بالقول إن الخلوة بالقرين كانت سرّي، وعزائي، ويقيني، وغايتي التي استوجبت التحرّر من الوليد المسكين؟ لماذا لا أبتهج وألهو وأستبعد الغمّ إذا كان ميعاد اللقاء بالقرين لن يطول بعد اليوم كثيراً؟ لم يطل انتظار الميعاد حقّاً. بعد أيام أقبل القرين

حقّاً. لم يقبل وحيداً، ولكنّه أقبل وأقبلتْ معه السعلاة. أقبل يجرّ بعيراً تستقرّ فوق ظهره جنّيته الكريهة. وجدني بانتظاره على السفح الرمليّ. أوقف البعير بعيداً، وأقبل نحوي وحيداً. كنت ألهو بحفنة الرمل في راحة يدي، كما لهوتُ بقبضة التبر يوم دفعت الوليد إلى المنفى. كانت أنسام العشيّ تختطف هباء التراب اللئيم الذي يحاكي في لونه وحجمه ومسلكه هباء التّبر، فتبيده في الفراغ في لمح البرق. لم أهرع لملاقاته. لم أنهض لتحيّته. لم أرفع بصري إلى بصره. مضيت ألتقط من السيف الرملي السّخيّ قبضات الغبار، وأبسط كفّي لأتسلّى بلعب أنفاس الشمال بذرّات الذهب المزوّر. ويبدو أنه وقف فوق رأسي طويلاً، لأنّه لم يطق على الإيماء صبراً على عادة عقلاء الصحراء، ولكنّه آثر القفز الى الأمر رأساً:

- لا تحاول أن تنكر ، لأن العرّافة التي دلّتني عليك لا تخطئ ولا تكذب!

لم أجب. لم أشيّع إليه عيناً. لم أرفع رأسي عن لعبتي الطفوليّة. أدركت أنّه عاند غيظاً عندما قال:

- لا تظنّ أنّ العرّافة هي الإنسان الوحيد الذي دلّني عليك، ولكن حكيم القيافة أيضاً تبيّن الأثر.

لم أجب. لم أشيّع إليه عيناً. لم أرفع رأسي عن لعبتي الطفوليّة، فسمعت في صوته يأساً، هذه المرّة، بدل الغيظ:

- ماذا فعلت به؟

لم أجب. لم أشيّع اليه عيناً. لم أرفع رأسي عن لعبتي الطفوليّة، فسمعته يتوسّل بالسؤال الوحيد الذي أدركت أنه لا يريد أن يتلقّى عنه جواباً:

- هل نحرته أيضاً؟

ساعتها فقط أجبت. ساعتها فقط شيّعت اليه عيناً. ساعتها فقط رفعت رأسي عن لعبتي الطفوليّة. فعلت ذلك لأنّي قرّرت أن

أنتقم. لم أفعل ذلك إلاّ إرواء لظمأ الانتقام. الكثيرون يظنّون أنّ الإنسان خلق لينتقم من الأعادي، وينسون أن الإنسان لم يخلق إلاّ لينتقم من أقرب الأقرباء. الإنسان لم يخلق إلاّ لينتقم من القرناء. الإنسان لم يخلق إلاّ لينتقم من نفسه عندما لا يجد إلى جواره حميماً ينتقم منه. بل لا ينتقم الإنسان من الأغيار، ومن الأقرباء، ومن القرناء، إلاّ لينتقم من نفسه. لأنّ السوء الذي لا ننزله بأنفسنا، لا يستطيع إلاّ الأغيار إنزاله بنا. نعتدي على الغرباء والأقرباء والأحبّاء لننال على أيديهم الجزاء، لأنّنا أمّة مجبولة على الجبن منذ أوّل يوم. الغرباء يستطيعون أن يدافعوا عن أنفسهم لردعنا عن العدوان فينزلون بنا القصاص الذي لا نستطيع أن ننزله بأنفسنا. لهذا السبب لا نرفع أيدينا لنصفع إلاّ ليقيننا بأننا ستلقى بدل الصفعة صفعة. ولا نسبّب للأغراب أذىً إلا لنستطعم على أيديهم الأذى. ولا نطعن بالمدية لنميت، إلاّ لنُطعن بالمدية لنموت. لأنّنا لم نخلق لنحيا، ولكنّنا خُلقنا لننتقم، خلقنا لندفع الموت ثمناً لانتقامنا. هذا سرّ عدم قدرتنا على التنازل على الانتقام. هذا سرّ اللذّة الخفيّة التي لا وجود لها إلاّ في الانتقام. ذلك أنّ الإنسان الذي جرّب لذّة الانتقام يعرف أنّ الإنسان بالانتقام، لا ينتقم، في الحقّ، إلاّ من نفسه. لهذا السبب لُدغت عندما سمعت في وشوشته خوفاً. عندما فضح بضعفه فزعه من انتقامي. أدركتُ أنّ أوان انتقامي قد حان، فقرّرت أن أخرج من قمقمي أخيراً:

- لم أنحره!

أجبته بصوت اليقين، فصدّقني. برهن عن يقينه بزفرة عميقة، ولم يخطر ببال الأبله أن ثمّ مصيراً أسوأ من النحر بأضعاف الأضعاف. ظنّ أنّ البقاء على قيد الحياة الدليل الوحيد على النجاة من الهلاك، ولم يدرِ المسكين أنّ النجاة من الموت كثيراً ما كانت مصيراً أسوأ من الموَت. ركع على ركبتيه بجواري، ونفث في

وجهي أنفاساً كفحيح الحيّة:

- لو أعدتَ لي الوليد فسأبقى إلى جوارك إلى الأبد!

- هيهات!

- ماذا تريد أن تقول؟

- حتى لو صدّقتُ العهد من فمك، فإنّ أوان العهد قد مضى.

- ماذا تريد أن تقول؟

- الوليد لن يعود أبدا!

- هل نحرته؟

- لم أنحره.

- كيف لا يعود مَنْ دبّ في قلبه نبض الحياة؟

- ولكنّ المخلوقات التي أكلت خبز الشطآن، يموت في قلبها نبض الحياة وإن ظلّت على قيد الحياة.

- ماذا تريد أن تقول؟

- قلتُ كلّ شيء!

- لم تقل شيئاً. لم تقل إلاّ الأحاجي والألغاز.

- قلتُ كل شيء.

تساءل كثيراً، حام حولي كثيراً، ولكني عدتُ إلى قمقمي. انكببتُ فوق ترابي، ودفنتُ رأسي في لعبتي الطفوليّة، فيئس. يئس فانصرف. ولكنه لم ينصرف إلى متاعه إلاّ ليبعث لي بسعلاته الكريهة. أقبلتْ كما تقبل كلّ أنثى فقدت وليدها الوحيد. أقبلتْ شاحبةً، شقيّةً، مكسورة القلب. أقبلتْ ذليلة فتحرّك في صدري ثعبان الانتقام. خرجت من قمقمي في الحال، وانتظرتها. انتظرتها ولكنّي لم أهرع لملاقاتها، ولم أنهض لإكبارها. وقفت فوق رأسي فرأيتها كما لم أرها يوماً. رأيتها كما لم أحلم يوماً أن أراها. رأيتها كما حلمتُ أن أراها يوم خانت العهد وسرقت منّي كنزي الخالد. لم تستح في ذلك اللقاء أن تعود إلى البهتان عندما حاولت أن تخدعني وتكبّل نفسها بعهد جديد:

- أعد لي وحيدي، وسأعيد لك وحيدك إلى الأبد. هذا عهد!
- لا يليق بمن حنث يوماً بالعهد، أن يتحدّث اليوم عن العهد.
- دعنا من العهد، وهيّا بنا نعقد صفقة. فلنجعلها صفقة كصفقات أصحاب التجارة.
- وهل تفلح الصفقة في استعادة من أخذته الصفقة إلى الأوطان التي سنّت شرائع الصفقة؟
- لا تحدّثني بتوريات العرّافين وأصحاب الدهاء!
- ليس أمامك إلاّ النواح.
- ماذا تريد أن تقول؟
- لن تنالي ضالّتك إلى الأبد.
- كيف تتحدّث بلسان اليقين إذا لم تنحره؟
- يعود الأموات من قبورهم، ولا يعود إلى الصحراء مَنْ أمات خبز الشطآن في قلبه الحنين.
- هل دفعتَ به، أيها الشقيّ، إلى أيدي التجّار؟
-ليس أمام الأمّ إلاّ النواح.
- مهلاً، ففي جعبة الأمّ سهاماً غير النواح.
- ليس في جعبتك سهم واحد.
- ها أنت تسيء الظنّ بملل النساء، كما أسأته يوماً.
- بالأمس ملأت شدقيكِ ضحكاً، واليوم ستملئين شدقيك دموعاً.
- ألن تلين لو علمت أنّي لن أستطيع أن أنال له بعد اليوم بديلاً؟
- مرحى! مرحى!
- ألن ترحم لو علمتَ أنّ الساحرة أعجزتها علّتي وأفقدتني الأمل في نيل الذريّة؟
- انقلي امتناني للساحرة جزاء البشارة.
- استرداد الوليد أملي الوحيد.

- لا أمل في استرداد الوليد.
- ألا تدري أنّ المرأة التي لم تنجب، امرأة لم تحيا.
- هذه بشارة أنفس من بشارة الساحرة.
- أمامك يقف مخلوق شقيّ.
- كلّنا مخلوقات شقيّة!
- اعلم أنّك لن تنال وحيدك إن لم تردّ لي وحيدي.
- سأناله!
- أنت تستهين بدهاء النساء، فاحترس!
- سمعت هذا الوعيد يوماً.
- كان يجب أن تعترف بوقوفك على حقيقة هذا الوعيد يوماً.
- لقد استنفدت كلّ السهام، وجعبتك اليوم خاوية.
- السهام في جعبة المرأة لا تنفد أبداً.
أطلقتُ في وجهها ضحكة قبيحة.

٣٣

لم أنتظر، من المجهول، الرحمة. لم أنتظر من الخلق عوناً. لم أنتظر من كلّ الأغيار غوثاً، لأنّي أدركت أنّي وحيد مرّة أخرى. كنت قد عرفت حقيقة الإنسان الوحيد. كنت قد عرفت أنّ المخلوق الوحيد لا يملك إلاّ نفسه، فقرّرت أن أتولّى أمري بنفسي. قرّرت أن أدافع عن نفسي بنفسي. قرّرت أن أشمّر عن ساعديّ، وأتحسّس مديتي في كُمّي، وأنزل الساحة الوحشيّة المسماة بلسان الأمم حياة إذا شئت أن أستولي على نصيبي من الغنيمة، إذا شئت أن أنتزع حصّتي من الحياة، إذا شئت أن أحيا كما يحيا كلّ الأحياء. خاصمت الأحياء، خاصمت كلّ الأحياء لا كراهة في ملل الأحياء، ولكن لأنّي أدركت عدم جدوى مهادنة الأحياء. خاصمت الأحياء لأنّي تعلّمت أنّ الأحياء، إذا صالحتهم خاصموك، وإذا أكبرتهم استصغروك، وإذا آمنتهم خانوك، وإذا ولّيتهم ظهرك طعنوك، ولم أجد، في حياتي كلّها، حيلة لاتّقاء

شرّهم إلاّ الاستنفار الأبديّ، والاستعداد الخالد للدفاع عن النفس.

لا حيلة لمن اختار الحياة بين الخلق غير سلاح الدفاع عن النفس. والمخلوقات التي لا تجد حيلة للدفاع عن النفس مصيرها بئيس. المخلوقات التي وُلدت من البطون عزلاء مصيرها الهلاك. المخلوقات التي لم تحسن الدفاع عن النفس قدرها الويل، لأنّ الأبرياء الذين لا يملكون ما يدافعون به عن أنفسهم غير قلوبهم ومحبّتهم وثقتهم، لا بدّ أن يجدوا أنفسهم، في الساحة الوحشيّة، يعتنقون ناموس الاسترخاء الذي يدفع الأغيار الطعن بالأنصال ثمناً له. الأبرياء، في ساحة الخلق، قرابين الخلق. الأبرياء لم يولدوا إلاّ ليكونوا، في الساحة الوحشيّة، للأحياء ضحايا. الأبرياء لم يحسنوا ترويج بضاعتهم يوماً لأنّهم لم يتعلّموا طلسم الصفقة التجاريّة المسماة في لغة القبائل حياة، فخسروا صفقة نفيسة إسمها الحياة. الأبرياء بلهاء بالسليقة لأنّهم خالفوا ناموس اللهو، فكشفوا عن نواياهم، كشفوا عن كنوزهم، فأصابت اللعنة كنوزهم بالمسخ، فجنوا مقابل حُسن نواياهم، جنوا مقابل كنوزهم، رماداً وشروراً. لقد جربّت الخسارة أيضاً. جربّت كيف خسرت في كلّ صفقة دفعت فيها قلبي مقابلاً، فعرفت أنّ الصفقة التي يدفع فيها الإنسان قلبه صفقة خاسرة دائماً، لأنّ الإنسان الذي اعتاد أن يتعامل بالزّور، لا يستخفّ إلاّ بالبضاعة التي يكون فيها القلب عملة. اعتنقت عرف الأبرياء يوم صرعني الإشفاق، فتنازلت عن يقظتي، ووهبت القرين للقرينة، ووهبت القرينة للقرين، فَبمَ كافأني القرين، وبمَ كافأتني القرينة؟ لقد حنثوا بالوعد في الحال. لقد طعنوني ما أن وليتهم ظهري. لقد استهانوا بقلبي الذي دفعته لهم قرباناً لاستبقائهم إلى جواري. استهزأوا بتضحيتي، وأوهموني بأنّهم لم يقبلوا ليقيموا إلى جواري إلاّ إحساناً منهم، ورحمة بإنسان يعاني من علل الجنون. انتحلوا

لأنفسهم إحساني، واغتصبوا رحمتي، وتغامزوا في زوايا الخباء ليرجموني بالجنون؛ لأنّ النّبل، في عرفهم، بلاهة؛ لأنّ البراءة، في ناموسهم، هي الجنون. فهل تركوا لي خياراً غير خيار الدفاع عن النفس؟ ألم يحن الأوان لأكشف عن نيّتي القديمة، وأتولّى أمر نفسي بنفسي؟

٣٤

حان الميعاد فاقتحمتُ الخباء. حلّ الغسق فتسلّلتُ واختبأت في ركن المضرب. مكثتُ في الزاوية أمداً. لم أتزحزح من الزاوية إلاّ بعد أن أيقنت خلوّ البيت من القرين ومن الزوّار. ترصّدتها فرأيتها تنكبّ على قطعة جلديّة في حجْرها. تنمنم الجلد وربما ترتق الجلد، لا أدري، لأنّ عتمة الغسقَ حجبتْ عنّي القطعة التي تنام في حضنها. ويبدو أنّ غياهب الغروب ضايقتها أيضاً، فأبصرتها تلملم القطعة وتلقي بها في الركن الآخر. ساعتها زحفتْ نحوي. ساعتها انسابت نحو الفراش المطروح إلى جواري كأنّها أحسّتْ بحلول الميعاد فدبّتْ لتلبّي النداء. جاءت إلى مصيرها تسعى لأنّي كنت قَدَرَها الذي انتظرها طويلاً. انتظرتها منذ رأيتها، وعرفتُ أنّ المجهول قد نذرها لي. عرفتُ أنّ الخفاء قد ولاّني أمرها منذ قدمة لا طاقة لذاكرتي باستعادتها، لأنّ زمانها سبق الزمان، وحينها سبق الأحيان، وميعادها سبق حتى الميعاد

الذي وُلد فيه النسيان. أقبلت استجابة للنبوءة، لأن النبوءة هي النداء الوحيد الذي لا نملك له دفعاً، إذا حلّ. التقمتُ معصمها بغتةً فندّت عنها شهقة فزع. التقمتُ معصمها كما يلتقم الثعبان فأرةً، ففرّ السواد من مقلتيها، وغزا الشحوب وجنتيها وشفتيها. شددتها إليّ بعنف، فانهارت في الفراش الذي انطرح بيننا كجسد الميّت، كجسد مبهم، ولكنه مقدّس. همهمتْ بكلم غامض، شهيّ، يليق بامرأة وجدت نفسها وحيدة مع رجل في المخدع. دغدغتني الهمهمة، وأيقظتْ في بدني أهواء لا تستثيرها فينا إلاّ وشوشات أهل العشق، فمددتُ يدي إلى المدية. سحبت النصل من الغمد المدسوس في كُمّ الجلباب، ورفعتُ اللسان الشره في وجهها. ولكنّها لم تتراجع. تمادت، وزحفت إلى الأمام حتى أحسستُ بجسدها الريّان، الدافئ، يلاصق جسدي، وأنفاسها الشهيّة، الحارّة، تلفح أنفي ووجنتيّ. التأمنا كعاشقين حميمين، التأمنا كحميمين أبديين. غاب بدنها في بدني، ملأتْ بأطرافها الشهيّة كل خواء في أطرافي، وسدّت بلحمها كلّ فراغ في لحمي. أزاحت طرف لثامي عن الشقّ البليد المسمّى فماً، وحشته بلسانها اللئيم. أطبقت بشفتيها على شفتيّ لتحكم القمقم حول عضلة الفكّين. سدّت الخياشيم أيضاً بالخياشيم، وتلوّت بمهارة الحيّة، فاشتعل بدني بحمّى ظننتُ أنّي نسيتها إلى الأبد. حمّى أيقنت أني استأصلتها يوم استأصلتُ من بين الفخذين العضلة، ودفنتها في المكان الذي دفنتُ فيه العضلة: حمّى الشهوة!

طوّقتني بذراعيها، ولفّت جرمها حول جرمي كثعبان حتّى أني لم أعرف كيف وجدتُ نفسي عارياً، كما وجدتها بين ذراعي عارية: تغيب فيّ، وأغيب فيها؛ تجاهد لتحتلّ جسدي، وأجاهد لأحتلّ جسدها؛ تستميت لتنالني، وأستميت لأنالها؛ تستبسل لتستعيدني، وأستبسل لأستعيدها؛ تتوسّلني لتمتلكني، وأتوسّلها لأمتلكها؛ تحتال لتعيد البنيان إلى أصله المفقود، واحتال لأعيد

البنيان إلى أصله المفقود. ولا أدري إلى أيّ غاية كان سينتهي كفاحنا المميت لو لم ترتكب الأنثى خطيئة مميتة. بلى، بلى. ارتكبت المرأة الخطيئة التي أخرجتنا من فردوسنا لأنّ ارتكاب الخطايا التي تحوّل الفردوس إلى منفى قدر المرأة دائماً. اقترفت المرأة الخطأ المميت فمدّت يدها إلى الفخذين لتستولي على العضلة الأخرى التي تندس بين الفخذين. جسّت الأخدود، ودبّت تفتّش بأناملها عن الحيوان الضائع بجشع يليق بالمخلوقة الخبيثة التي تعرف أنّها لا تنجو بنفسها إلاّ دفعت الشهوة ثمناً للحياة. أدركتُ الخطر في الحال، فزعزعني المسّ. أدركتُ أنها قررتْ أن تستدرجني بعيداً، قررتْ أن تشتريني، قرّرتْ أن تنالني، لأنّ المرأة لا تنال الرجل أبداً إن لم تستدرجه إلى المخدع، لا تنال الرجل أبداً إن لم تنله في المخدع، لأنّها تعرف أنّ الرجل الذي يفلت منها في المخدع يفلت منها إلى الأبد. وعندما اكتشفتْ زوال العضلة بين الفخذين أطلقت شهقة أخرى أشدّ من شهقتها الأولى. ساعتها جاء دوري. ساعتها انطفأت الشهوة المميتة في جسدي. ساعتها بطل مفعول السموم في بدني، فأطلقت ضحكتي اللئيمة، ضحكتي المريبة، ضحكتي المميتة التي تفلت رغماً عنّي عندما يحين الميعاد، وأسمع في أذني صوت النوح. لأنّ الرجل الذي يريد أن ينال المرأة لا بدّ أن يتولّى الأمر بنفسه، لأنّ الرجل الذي يريد أن ينال المرأة لا بدّ أن يبيد المرأة، لا بدّ أن يميت المرأة.

٣٥

لا يعرف الفساد سبيله إلى جسد الرجل الذي امتلكته المرأة وحسب، ولكن الفساد يتسلّل إلى قلب الشقيّ أيضاً. تدبّ ديدان الفساد في الجسد أوّلاً، ومن هناك ينتقل العفن إلى الروح، فتصيب العدوى الأعماق. يحبل قلب الرجل بالفساد كما تحبل امرأته بالأجنّة، فيعود الرجل الذي انتهكته المرأة منتهكاً، كريهاً، مخرّباً، لا يعوّل عليه. يذهب الرجل إلى أحضان المرأة رجلاً، ويعود الرجل من مخدع المرأة إمرأةً. هل قلت إمرأة؟ كلاّ، كلاّ. الحقّ أنّ الرجل الذي يهب نفسه للمرأة لا يعود إلى الوراء امرأة أيضاً، بل ينقلب مخلوقاً أسوأ من المرأة لأنّه لا يبقى رجلاً، ولا يتحوّل امرأة أيضاً. يصير مخلوقاً خنثى لا علاقة له بسلالة الرجولة ولا ينتمي إلى ملّة الأنوثة. ينقلب حال الرجل الذي امتلكته المرأة، لأنّه يفقد بين أحضان الأنثى بكارته دون أن يستعير، بالصفقة، بكارة المرأة. تختلس الأنثى منه بكارة القلب،

وتهبه، بالمقابل، بكارة الجسد. تنال المرأة، بالالتحام، البكارة الحقيقيّة، البكارة الأبديّة، وتهبه البكارة المزيّفة، البكارة الزائلة، البكارة التي تتبدّد، وتتقشّع، وتبيد كما يبيد الهباء. يفقد الأبله، في المقايضة، بكارته، ويعود من الرحلة خاوياً. يعود على عقبيه مخلوقاً آخر تماماً. يعود على عقبيه كائناً مزيّفاً لأنّه خسر، في الرهان، كنزه. خسر في الرهان روحه.

هذا ما حدث للقرين.

القرين خسر كنزه أيضاً، فأضعته إلى الأبد. لم تسرق الداهية منّي جسده، ولكنّها اختلست الساحرة قلبه. استطعتُ أن أقتصّ من السعلاة بالمدية، ولكنّي لم أستطع أن أستردّ من الضياع القرين. أضعتُ القرين إلى الأبد لأنها لم تنسَ أن تأخذ معها روح القرين قبل أن يذهب بها لسان المدية إلى المجهول. ظننتُ أنّي انتقمت لنفسي منها، ولكنّي اكتشفت أنها ثأرت لنفسها منّي، وطعنتني طعناً أشرّ من طعني. تذكّرت وصيّتها الأبديّة. تذكرت تحذيرها لي بخطأ الاستهانة بالمرأة، فأيقنت أنّها غلبتني، غلبتني يوماً وهي على قيد الحياة، وغلبتني اليوم وهي في عداد الأموات، فأدركت أنّ المرأة حيّة حقّاً. أدركتُ أنّ المرأة حيّة لا تموت حتى لو توارت وراء حجارة الأموات. لأنّ الرجل إذا وُضع في يد القرينة، لا يختلف عن المرأة إذا وُضعت في رقبة القرين. التخلّي عن الرجل لامرأة كالتخلّي عن المرأة لرجل: كلاهما لا يعودان إلى الوراء إلا غرباء. كلاهما لا يُستعاد إلاّ حطاماً. كلاهما لا يرجعان إلاّ أنقاضاً وأشباحاً. ذلك أنّ المرأة تستنزف من الرجل رجولته كما يستنزف الرجل من المرأة أنوثتها. لهذا السبب يعود الرجال الذين تنازلنا عنهم للنساء نساء، وتعود النساء اللائي تنازلنا عنهنّ للرجال رجالاً. لهذا السبب لم أجد في القرين قريناً. لهذا السبب لم أعرف في القرين الرجل. لهذا السبب لم أجد في الرجل الذي وهبته للمرأة على سبيل الإعارة لا الرجل ولا المرأة. لهذا السبب

ورثت الأجيال عن أسلافهم الأوّلين الوصايا التي تحرّم إعطاء الرجال للنساء على سبيل الإعارة، أو إعطاء النساء للرجال على سبيل الإعارة. الآن، فقط، أدركتُ سرّ الناموس. الآن، فقط، بعد أن وجدتُ في القرين مخلوقاً آخر غير القرين، عرفت نبل الناموس. الآن، فقط، بعد أن انتقمتْ منّي الداهية، واستبدلتْ لي كنزي، بهباء آخر مزيّف، فهمتُ حكمة الناموس. استبدلت الجنيّة الوديعة التي وهبتها لها على سبيل الإعارة، كما استبدل الجنّ القرين زمن الطفولة عندما ذهب إلى التّيه.

٣٦

قال لي إنّي شرّير. قال لي إنّ الأب كان على حقّ عندما حذّره منّي قائلاً إنّي غول لن يقف عند حدّ. قال، أيضاً، إنّه لن يغفر لي، فقلت له إنّ ما يغتفر له يغتفر لي، وما يغتفر لي يُغتفر له، لأنّه ليس كائناً آخر، لأنه لم يستطع أن يولد من جديد ليعزل نفسه عنّي في مخلوق آخر، لأنّه لم يجد حيلة ليتمرّد على قدره، كما لم أجد الحيلة لأتمرّد على قدري، لأنّه لم يكن بوسعه أن يكون إلاّ أنا، كما لم يكن بوسعي أن أكون إلاّ هو، لأنّه لم يجد مني المفرّ، برغم استماتته في إيجاد المفرّ، كما لم أجد منه المفرّ، لأنّي لم أفتّش، مثله، عن المفرّ. ولكنّه لم يفهمني لأنّه كان خاوياً، لم يسمعني لأنّه كان سلبياً، لم يصغ لي لأنّه كان مستبدلاً. كشّر في وجهي كالضّبع، وحشرج بصوت ليس صوته: «أنت شرّير!». أعاد العبارة الشرّيرة مراراً، وأضاف أنّه لا يريد، بعد اليوم، أن يراني. قال ذلك بتصميم مريب. قال ذلك بتصميم أنكرته، لأنّي

لم أعهده فيه. رمى في وجهي بكلمته الأخيرة قبل أن يهجرني، فأيقنتُ أنّه ضاع إلى الأبد. أيقنت أنّي أضعته إلى الأبد. أيقنت أنّ المرأة التي أخذت قلبه قد أفلحت في تدبير مكيدتها ضدّي لأنّها اختلست، مع قلبه، قلبي أيضاً. أيقنت أنّ المرأة لا يستهان بها حتى وهي ميّتة. أيقنت أنّ المرأة، كالحيّة، تنتقم من قاتلها حتى وهي ميّتة. أيقنت أنّ المرأة، كالحيّة، لعنة خالدة لأنّها لا تموت. أيقنت أنّها هزمتني بلا سلاح. أيقنت أنّها أماتتني دون أن تجرّ نصل المدية على نحري. ولكنّي لم أستسلم. انتابني فزع مجهول فلاحقته. لاحقته لأنبئه بكلمتي الأخيرة أيضاً. أدركته وقلت له إنّي لم أملك حيلة في كلّ ما فعلت. قلت له إنّي لم أطعن مخلوقاً يوماً إلاّ دفاعاً عن نفسي. قلت له إنّي لم أختر قدري، ولم يطلب الخفاء مشورتي يوم بعث برسل الجنّ المتنكرين في أجرام النمل ليفلقوا البذرة في بطن الأمّ، فخرجنا مخلوقين بدل مخلوق واحد. قلت له إنّ عليه ألاّ يستهين بأمري، لأنّ المخلوق الذي ضلّ السبيل إلى قلبه لا يملك من أمر نفسه شيئاً. قلت له إنّي لم أفعل كلّ ما فعلت إلاّ لأستردّ قلبي. ولكنّه لم يكترث. ولكنه لم يجبني. ولكنّه اعتلى رحله ومضى. تابعته وهو يعاند سيول السراب . تابعته وهو يعاند الآفاق. تابعته حتى ابتلعه الخلاء، فركعت. دفنت رأسي في التربان. دفنت أطرافي في الكثكث اللميس. دفنت بدني كلّه دون أن أدرك ما أفعل. كنت أفتّش عن تدبير أحتال به على الخواء. كنت أبتغي سبيلاً يطفئ في جوفي الحنين. كنت أحفر بئراً لأنهل من نبع يروي في صدري الظمأ. لا أدري كم استغرق كفاحي بحساب الزمان. ما أدريه أنّ الظلمات استبدّت بالصحراء زماناً طويلاً، فلم أعرف عما إذا كانت تلك ظلمات الليالي، أم ظلمات القبر الذي دفنت فيه نفسي. ولكنّي لا أنسى أنّي عدت من رحلتي مخلوقاً آخر. لا أنسى أنّي خرجت من هاويتي وليداً آخر. لا أنسى إلى الأبد أنّي وُلدت من بطن الأرض

إنساناً آخر. لا أنسى إلى الأبد حنان الأرض التي أحيتني. لا أنسى أبداً وصيّة الأرض التي هدهدتني، وأخبرتني أنّها تستطيع أن تحييني دائماً عندما يميتني الخلق. لا أنسى إلى الأبد وصيّة الأرض التي أخبرتني أنّها لم تخيّب يوماً ظنّ مخلوق أمنها. لا أنسى، أخيراً، نبوءتها، لأنّ نبوءتها هي التي أعادتني إلى الحياة. لا أنسى إلى الأبد أنّها هي، الأرض، الأمّ الأولى والأخيرة، هي التي أنقذتني عندما قالت لي إنّنا لا نملك إلاّ أن نتحرّر من تلك الأشياء التي لا نجد السبيل لامتلاكها. لا أنسى وصيّتها الأخيرة، وصيّتها القاسية، عندما قالت أن علينا أن نتحرّر حتى من أنفسنا عندما نعجز عن امتلاك أنفسنا.

من هناك، من بطن المجهول، من جوف الأرض، من رحم الصحراء الخالدة، وُلدت. من هناك، من غيهب الرحلة الخفيّة، استعرت النبوءة. من هناك، من قلب الخافية، انتحلت خصالاً جديدة. من هناك، من غيبة الحمّى والغيبوبة والجنون، نلت لامبالاة السماء، وحلْم الصحراء، وسكون الحجر. من هناك استلهمت الرؤية، فَخرجت إلى مملكة الخلق لأبشّر بالرؤيا. سافرت إلى ربوع القرين لأنقل له وصيّتي. سافرت إلى القرين لأبلّغه الوصيّة التي وضعتها الأرض أمانة في عنقي. نزلتُ النجع قبيل الغروب. كان الغسق يسكب في الخلاء ضياء له لون النّار، فتخرس الألسن، وتتصنّت الكائنات، وترتعش الأجرام خوفاً من الخطر. في الغسق يتحرّر مردة الجنّ من أصفادهم اليوميّة، ويبدأون في نصب أشراكهم للإيقاع بالبشر. حللتُ أرض الجنّ أيضاً مع حلول الغسق. نزلت أرض الخطر جرياً وراء نصيبي من غنيمة الخطر. وجدته يتربّع في قاع الخباء، يتدفّأ بجوار موقد النار، فجلست في المواجهة. لم ينبس، لم يشح بوجهه، لم يستنكر. مضى يحاصر النار براحة يديه، دون أن يتوقّف عن ملاحقتي بعينيه. لم أرَ في عينيه إيماء. لم أرَ في عينيه نوايا. لم أرَ

في عينيه سوى الخواء. ربّما احتجبت اللغة في مقلتيه لاستماتته في قراءة الوصيّة في عينيّ. فهل كان الانطفاء في العينين تسليماً؟ هل كان الخواء في المقلتين تخلٍّ؟ هل كان الموت في المقلتين نبوءة؟ خَبَا وهج النار، فسمعته يقول:

– أوصاني قائلاً إنّك لن تقف عند حدّ، فهل كانت تلك نبوءة؟

أجبته ببرود الحجر:

– أجل . . .

– أتدري؟ لقد أحببتك . . .

– لا ننزل القصاص إلاّ بمن نحبّ!

– أحببتك كما لم أحبّ أحداً . . .

– لا نميت إلاّ من نحبّ. لا ينبغي أن نميت إلاّ من نحبّ!

زحفت العتمة، ولكنّي تبيّنت في عينيه وميضاً غريباً، فهل كان ذلك استخفافاً؟ هل كان ذلك إيماء الذين طووا كلّ شيء وراءهم، لأنّ التحديق في الأبديّة ألهاهم عن كّل شيء؟

قال بصوت مشبوه:

– ألم يحن الأوان كي أنال من كفّ الرسول الوصيّة؟

– لم أقبل إلاّ لأبلّغ الوصيّة!

عمّ سكون. عمّ السكون في الخباء، وعمّ السكون خارج الخباء. تمادت في الخارج الظلمات، وانطلق الجنّ ليمتلكوا الخلاء.

حشرج بفحيح موحش:

– عجّل!

لم أعجّل. لم أتململ. لم أستعر بالحمّى. كانت وصيّة الأرض أقوى من كلّ القوى. كانت وصيّة الأرض تشدّني إلى الأرض، فأنتحل لا مبالاة السماوات، وأمتلك برودة الحجارة، وأستعير خفّة الريح، وأحيا حياة الشجر، حتى أنّي لم أعلم ما الذي دفعني لأن أتساءل:

- هل ستغفر؟

لم يطل انتظاري للجواب:

- لم يعد للغفران معنى.

- صدقتَ. لم يعد للغفران معنى.

كانت تلك كلمته الأخيرة، كانت تلك كلمتي الأخيرة أيضاً، لأنّي سحبتُ النصل من الغمد ببرود الحجر، وانتظرتُ مهلة. انتظرت تلك الغمضة التي أستطيع فيها أن أمتلك نصل المدية. انتظرت تلك الومضة التي تصير فيها يدي امتداداً لمقبض المدية، فأستنزل اللسان الشرس على النحور كأني أهشّ بيدي ذبابة. انتظرت غمضة الإلهام الجنوني التي تختطف أنفاس الجليس في لمح البروق. ولكن عليّ أن أنتظر إلهامي طويلاً هذه المرّة. لا أدري كم استغرق الانتظار المميت، ولكنّي لا أنسى اليسر الذي بلّغتُ به الوصيّة. لا أنسى اليقين الذي تحرّرت فيه من الغلّ الذي حاولت أن أمتلكه دائماً، ولكنّي لم أمتلكه يوماً. لا أنسى، إلى الأبد، السرعة الجنونيّة التي هوت بها يدي على النّحر، ففزّ الدّم في وجهي، فانكفأ الجليس إلى الأمام ليقع في حضني كطفل صغير.

٣٧

حملْته إلى رحاب الوطن الأوّل. أنزلته وادي الأسلاف في «إيمي-ن-هرو»، وصعدت به الأعالي لأدفنه في الجوف المقدّس. صنعتُ له بيديّ ضريحاً مهيباً في حضيض جدران الصلد المزبورة بتمائم الأوّلين ووصايا الأجداد القدماء. فرغت من عملي، ولكنّي لم أهجر المكان. لم أهجر المكان لأنّي وجدت نفسي مهجوراً مرّة أخرى. لم أفقد سكينتي، ولم أضع تميمة البرود التي استعرتها من أمّي الأرض في غفوتي المجيدة، ولكنّ الخواء تنامى حتّى أنّي لم أجد ما أفعله بنفسي. رأيت الصحراء بعين أخرى، ونحلني المجهول قلباً آخر، فسرتُ في الخلاء بروح المجاذيب، أو الممسوسين، أو أصاحيب الوجد. همتُ في الخلاء غائباً عن الخلاء، فهل هذا ما يسمّيه العقلاء تحرّراً؟ هل استبدال الجوف، والحياة بقلب مستعار هو ما يدعوه الدهاة خلاصاً؟ هل ندفع الذهول ثمناً لنيل اللامبالاة؟ هل فقد الروح لنيل اللامبالاة شرط؟

أيّ سرّ وجدته الآلهة في اللامبالاة حتى اشترتها بهذا المقابل الجسيم؟ أيّ سرّ تخفّى في اللامبالاة حتّى اعتنقتها الكائنات فصارت مع الأيام ناموساً لكلّ الكائنات التي تتطلّع إلى السماء؟ ألن تكون اللامبالاة خطراً حقيقيّاً، لأنّها ليست علامة للحياة، ولكنّها القناع الذي تتستّر وراءه الأبديّة؟

هجعتُ في السفوح لأستوحي الأرض، فكلّمتني الأنجم في السماء. سماء الليل تتنكّر لسماء النهار، لأنّ سماء النهار عارية، وسماء الليل محتجبة، سماء النهار نائية، وسماء الليل دانية، سماء النهار خالية، وسماء الليل مسكونة، سماء النهار مكابرة، وسماء الليل خاضعة. سماء النهار لامبالية، وسماء الليل تفيض بالسؤال والاستفهام والفضول. سماء النهار تلوّح بأجناس الوعيد، وسماء الليل تستدرج وتستمهل ولا تبخل بأجناس الوعود. سماء النهار تحتجب بالضياء، وسماء الليل تتبدّى بالظلمات. سماء النهار خاوية، وسماء الليل تومض بالأجرام، وتتباهى بامتلاك الكائنات. استنجدتُ بالكائنات بحثاً عن سرّ الأرض، فاستدرجتني الكائنات لتسرّ لي بأمر الأرض. ذهبتُ في سبيل الكائنات بعيداً، وارتدت أوطاناً مجهولة، وطفتُ صحار قاسية، ونزلت خرائب موحشة، ونجوت من التنانين بالأعاجيب، وسرتُ في الأدغال معصوب العينين، ولا أدري كيف سقطتُ في الهاوية التي تصطخب بفحيح الأفاعي. حاصرتني الأفاعي الأبديّة، ولكنّي غالبتها دفاعاً عن نفسي، برغم يقيني من عدم جدوى دفاعي عن النفس لأنّي لم أستطع أن أتحرّر من عمائي، ولم يكن بوسعي استعادة بصري حتى لو تخلّصت من العصابة المحكمة حول عينيّ لأنّي اكتشفت، في ما بعد، أنّ الظلمات في الهاوية كانت عماء أعظم من العصابة الملفوفة فوق عينيّ. أفلحت في التحرّر من العصابة، ولكنّي لم أفلح في الرؤية. أفلحتُ في الإفلات من التنانين، ولكنّي لم أفلح في اجتناب الحيّات. أفلحتُ

في عبور الأشراك، ولكنّي لم أفلح في الخروج من الهاوية. أفلحتُ في خوض سبيل الدفاع عن النفس، ولكنّي لم أفلح في نيل الغلبة. أفلحتُ لرفضي الوقوف مكتوف اليدين، ولكنّي لم أفلح أبداً، لأنّ الإخفاق قدر كلّ من قادته الأقدار إلى سبيل الهاوية. أخفقتُ لأنّ قدر العابر الإخفاق. أخفقت لأنّ قدر العابر أنّ يتولّى الدفاع عن النفس برغم أنه يعلم يقيناً أنه لن يحقّق الغلبة أبداً. أخفقتُ لأنّ الاخفاق رسالة الكلّ، برغم أنّ الكلّ يرفض الاعتراف بالاخفاق رسالة. أخفقت، فهالني الإخفاق. أخفقت ففررت. أخفقتُ فقفزت من هجعة الاخفاق مفزوعاً. فتحت عيني المعصوبتين بالنعاس والعماء وظلمات الهاوية. فتحت عينيّ فوجدته يتربّع فوق رأسي. فتحت عينيّ فرأيته بجواري ساكناً، غامضاً، مسكوناً بتلك اللامبالاة القاسية التي تليق بأولئك الذين اختاروا الانتماء إلى أوطان الأبديّة. ينحني إلى الأمام فيبدو، في ضوء القمر الغارب، كشبح يريد أن ينكفئ على وجهه. يبدو، في فيض الضياء الشاحب، كأنه يميل نحوي ليسرّ لي بأمر، ليوشوش في أذني بسرّه. فأيّ سرّ أعاده؟ أيّ أمر دعاه للتمرّد على ناموس الهاوية؟ أيّ أعجوبة أخرجته من الظلمات؟ أي سلطان حرّره من أصفاد الأبديّة؟ أم... أم أنّ ما رأيته ليس سوى رؤيا؟ أم إن ما رأيته ليس جنّاً لعيناً يتنكّر في جلد القرين؟ ألن يكون الأمر مجرّد دعابة كريهة من دعابات أهل الخفاء؟

تلفّتُّ حولي لأطرد النعاس. تلفّتُّ حولي لأفلت من شباك الأحلام. تلفّتُّ حولي فتلقّاني المكان، احتواني المكان، احتضنني الحَرَم القديم الذي لم يخذلني يوماً، هرع لنجدتي الوطن الأوّل الذي لم يتنكّر لي يوماً، فأدركت أنّي في رحاب الحَرَم حقّاً، وما رأيته ليس رؤيا من الرّؤى، ولا حلم من الأحلام، ولا مفرّ لي إلا التمائم إذا شئت أن أقطع الشكّ باليقين إذا رمتُ أن اكتشف ملّة المخلوق الذي يتستّر في جرم القرين. احتكمت إلى التمائم.

انطلق لساني دون أن أدري. لجلج لساني بتمائم الأوّلين. جرت التمائم المجهولة على لساني دون أن أفهم لغة التمائم. سمعت صوت التمائم على لساني فأنكرتُ صوتي، وأنكرتُ لساني. برطم لساني بتمائم منسية لا أعرف من أيّ ركن استنزلها لساني. تمائم غامضة، ملحونة، مبثوثة في أشعار اللغة القديمة التي تشبه لغة الجنّ؛ اللغة التي يروي الكهنة أنها كانت لغة أهل الصحراء المشتركة قبل أن تدبّ الفتن بين القبيلتين، وتنقسم الملّة الواحدة إلى إنس وجنّ. غنّى لساني التمائم ألحاناً، فردّدتها ورائي أنصاب الحرَم، فاختنق السكون بالهرج. ولكن... ولكنّ المارد الذي تلبّس بدن القرين لم يتقشّع، ولم يتبدّد. اقتربت من الجرم. انكببت فوق رأس الجرم. تطلّعتُ إلى العينين، فتبدّت المقلتان، في الضوء الشاحب، خاويتان، مستسلمتان، غائبتان كعيون كلّ الأموات. مددتُ أصابعي وأزحت طرف اللثام. انتابتني قشعريرة في الحال. زعزعتني قشعريرة لم يعرف بدني لها مثيلاً. عرفتُ في حياتي أهوالاً، والتقيت في السبل الجنّ كثيراً، ونازعت جبابرة المملكة الخافية مراراً، ونازعوني مراراً، وألفتهم عهداً، وبادلوني الألفة عهوداً، ولكنّي لم أفزع، ولم أتزعزع، ولم أرتجّ بالقشعريرة. فما الذي دهاني؟ أيّ إيماء رأيته في المقلتين الفارغتين؟ أيّ رسالة قرأتها في وجه الجليس الخفيّ فرمتني بالبلبلة، وأصابتني بالشلل والوجل والقشعريرة؟

أذكر الآن بوضوح أنّ الإيحاء الخفيّ بوجود الخطر هو ما أفقدني صوابي، ودفعني للفرار دفعاً. أجل، أجل. فررتُ في تلك الليلة من المكان، كما يفرّ الممسوس من وسواس لا يستطيع الخلاص منه، لأنّه يحمله في قلبه.

٣٨

اجتزتُ الحزام الرملي الذي يطوّق خاصرة الجبل بعدو جنونيّ، فسقطتُ مرّتين: عثرت، مرّة، بأحراش عنيدة تتشبّثَ ببرزخ الوعوثة، وصدمت، في المرّة الثانية، نصباً حجريّاً في حزيز السفوح السفلى، فشدخني بجراح دامية. ولكنّي لم أستشعر جراح الحجارة، كما لم أكترث لنهش الأشواك الوحشيّة. اجتزت السفوح، وهمت في قيعان الوادي حتى باغتت الصحراء أضواء الشروق. ركعت أرضاً، وساءلت الترباء. هجعت على القفا، وأغمضت عينيّ، فتولّت أمري الأمّ الأولى، وهدهدتني بين يديها. سلّت من بدني القشعريرة المميتة، وأرضعتني من سلسبيل السكينة. انقشعت البلبلة، وتبدّدت الوسوسة. أمنتُ الأرض، فآمنتني الأرض من شرّ الخطر الذي طاردني. لا أدري كيف غفوت. غفوت، ولكنّ غفوتي، يقيناً، لم تستغرق أمداً طويلاً، لأنّ قرص الشمس لم يرتفع فوق قوس الأفق كثيراً. صحوت

مخلوقاً آخر، فتسلّقت الجبل بروح المخلوق الآخر. تجنّبتُ المرور على الموقع، وتعمّدتُ الذهاب إلى الغار رأساً. هناك، في حضيض الصلد المزبور بالوصايا، وجدت ضريح القرين خالياً. أزاحتْ يد المجهول الحجارة أوّلاً، وبعثرتها في ساحة المغارة الشاسعة، ثم أزاحت الأتربة، وحفرتْ في الهوّة عميقاً لتستخرج القرين قبل أن تحتمله لتجلسه إلى جواري. لم أصدّق ما رأيت، فتراجعت إلى الوراء ذاهلاً. تراجعت، وفقدت في تراجعي التميمة التي علّقتها الأرض في رقبتي في المساءلة الأخيرة. زعزعتني القشعريرة مرّة أخرى، وأصابني الدوار والاشمئزاز والغثيان، فترنّحتُ وبدأتُ أتقيّأ. كدتُ أن أقذف أمعائي الخاوية خارج جوفي لأنّي لم أكتشف إلاّ ساعتها أنّي لم أذق طعماً للطعام منذ أيام كثيرة. تحاملت على نفسي، واندفعت إلى الموقع. اندفعت بجنون، فوجدته ينتظرني هناك: يتربّع في جلوسه، ينكبّ إلى الأمام، وقد تهدّل لثامه، فاكشفت شفتاه الشاحبتان، المتدليتان، المشوبتان بزرقة الأموات. وجنتاه شاحبتان أيضاً، ذلك الشحوب المشوب بالزرقة الكئيبة التي لا تستعير ذلك الجنس الخفيّ من الزرقة إلاّ في وجوه الموتى. كنتُ أرتجّ بشدّة عندما تصدّع رأسي بقعقعة الرعد المجهول، واخترقتْ بروق النبوءة الظلمات في قلبي: الأثر!

تذكّرتُ الأثر، فارتددت على عقبي بلهفة الممسوس. تذكّرت القيافة. تذكّرت السرّ الذي ورثناه عن الأجيال، فحوّل ملل العابرين جميعاً إلى دهاة، وحذّاق، وكهنة. تذكّرت أنّ سليل الصحراء لم يكن ليستطيع أن يحيا في الصحراء يوماً واحداً لو لم يؤتَ من بطن أمّه تلك الهبة النفيسة المسماة قراءة الأثر. تذكّرت أنّ الحياة برمّتها عراك مميت في سبيل الأثر. تذكّرت أنّ الأثر هو تلك الوصيّة التي لا بدّ أن يتركها الأحياء وراءهم حتى لو لم يرغبوا في ترك الأثر، لأنّ الإنسان الذي جاء إلى الصحراء ولم يترك أثراً في

الصحراء سيعدم البرهان على مجيئه إلى الصحراء لو لم يترك، في الصحراء، الأثر. فبسبب الأثر لم يتكلّم الشعراء، وآثروا أن يقولوا أشعاراً بدل الكلم. بسبب الأثر احتمل الرجل حريقاً اسمه المرأة لكي ينجب من بطنها أبناء يصيرون، من بعده، أثراً. بسبب الأثر امتلك آخرون الصحراء ظنّاً منهم أنّ امتلاك الصحراء سيصير في ذاكرة الأجيال أثراً. أثر، أثر، أثر، كلّ ما يحدث تحت قبّة السماء لا يحدث الا ابتغاء الأثر. فكيف يعجز رسول كالأثر على هديي إلى حقيقة الأثر؟ في الغار لم أعثر على الأثر. فتّشت ساحة الكهف ركناً ركناً، ولكنّي لم أعثر على أثر غير آثاري يوم احتفرت الضريح، فهل استخرج الجنّ القرين؟ أم أنّ القرين لم يحتمل عزلة الهاوية، فأزاح عن كاهله الحجارة والتربان، وعاد ليستأنس بقرين لم ينل منه في حياته سوى الهجر؟ هل علّمته عزلة الهاوية شقوة العزلة، فقرّر أن يعزّي القرين بعد فوات الأوان؟

يئست فهجرت الغار. ولكنّي لم أقطع سوى خطوات عندما قدح في رأسي شرر آخر. دلّني أثر آخر على حقيقة الأثر. لحظتُ أنّ الهوام تركت على تراب الغار آثاراً، ولكنّ آثاراً أخرى على التربان كانت أوضح. دبّت الخنافس والفئران على آثار نهار الأمس حتى كادت تخفيها، في حين تبقّت أثار أخرى، انطبعت على الترباء في وقت متأخر، ربما آخر الليل، أو مع حلول الفجر، لأنّ الهوام لم تدهمها لعلّة ضيق الوقت، وتقهقر الظلام. لم أفهم، ولم أصدّق، فذهبت وراء الأثر الأحدث. تتبّعت الأثر الأوضح فوجدته يخطو نحو الموقع الذي قضيت فيه ليلتي. قادني الأثر الى صاحب الأثر، ولم يختف إلاّ عندما وقفت فوق رأس القرين مرّة أخرى. لم أفهم، لم أَصدّق، لم أشأ أن أصدّق، فعدت إلى الوراء لتفقّد الأثر من جديد. تفقّدت بإمعان أشدّ فاكتشفت سرّاً جديداً. اكتشفت أنّ وقع خطواتي الليليّة على التراب تختلف عن أثر الخطوات الأخرى. اكتشفت أنّ أثر

الخطوات أكثر غوراً في وعوثة الأرض الرمليّة ممّا يقطع بأنّي لم أقطع المسافة في الليل بيدين خاويتين. أدركت أني كنت أنوء بعبء خفيّ، فأيّ جنون يريد أن يقودني إليه الأثر؟ أم أنّ الأثر لم يقُد إلاّ إلى الحقيقة، وابتغاء الحقيقة، دائماً، صفقة ثمنها الجنون؟

٣٩

استودعتُ القرين الهاوية مرّة أخرى. أهلت على الجرم تراباً، وحصّنتُ المثوى بقطع الحجارة، ثم حرثتُّ أرض الغار بحزمة علّيق لتطهير المكان من كلّ أثر سبق. حرثتُّ الحزام الرمليّ الذي يطوّق الخاصرة الجبليّة كلّها، ونزلت إلى الحضيض لأبيت ليلتي في قاع الوادي. حدّقتُ في ممالك النجوم طويلاً، وطفتُ بعيداً، بعيداً، ويئستُ وظننت أنّي لن أعرف إلى النوم سبيلاً، ولكنّي استطعت أن أغفو ما أن يئست. غفوتُ بعمق برغم أني ما زلت أشكّ في أنّ غفوتي في تلك الليلة استمرّت طويلاً. ذلك أنّ الظلام لم يتبدّد بعد عندما أفقت، فوجدته ينحني فوق رأسي، ينكبّ إلى الأمام، كأنّه يريد أن يوشوش في أذني بسرّه، ويتطلّع إلى وجهي بعينيه الخفيتين، المستورتين بالخواء، والغبار، والظلمات. تطلعتُ إليه طويلاً. تطلّعت إليه، ولكنّي لم أفزّ جانباً كما فعلت في الليلة التي سبقت. بل لم أنهض حتى من هجعتي،

لأنّي أدركت أنّ المخلوق الذي كان لي قدراً عندما كان على قيد الحياة، صار لي قدراً بعد أن صار في عداد الأموات. أيقنت أن الخطأ الجنونيّ الخفيّ الذي فرّقنا في جوف المجهول أخفق في سنّ ناموس يتمرّد على شرع الكائنات، وإن أفلح في تشييدنا في جرمين منعزلين. أيقنت أنّي كنت ضحيّة العراك المميت بين ناموس الأشياء، والخطأ المجهول الذي كان استثناء فظيعاً في المسيرة التي اعتنقتها الأشياء.

تابعت القمر الغارب، الشاحب، الذي فقد في الرحلة نصفه الثاني، فتجاسر عليه قبس الفجر، في الأفق المقابل، وشرع يجبّه رويداً رويداً. هجرتُ مهجعي، وطرحت جليسي القديم أرضاً. تركته طريح الأرض، وذهبت للتجوال في خلاء الوادي انتظاراً للصبح، وقتلاً للوقت. ولكنّي عدت على عقبيّ قبل أن أبتعد. عدت دون أن أدرك لعودتي علّة. عدت لأحتوي البدن المفقود بين ذراعي. ضممته إلى صدري، كأنّي انتويت أن أخفيه في جؤجوئي. كأنّي أردت أن أحقّق ذلك الحلم الذي هدهدته في قلبي دائماً، ولكنّه لم يتحقّق أبداً لأنّه لم يأتمن جانبي، ولم يهبني نفسه يوماً. لأنّه لم يأمنّي أبداً كما أمنته، ولم يهبني نفسه يوماً، كما وهبته نفسي دوماً. ضممته إلى صدري لأستعيده من المجهول ميّتاً، بعد أن أضعته وأضعت نفسي، بإضاعته، حيّاً. أدركت في حمّى العناق أنّنا لا نستطيع أن نمتلك الأحياء، لأن الأحياء هم الذين يمتلكوننا. أدركت أنّنا لا نمتلك من قبل الأموات، ولكنّنا نحن مَنْ يمتلك الأموات. لهذا السرّ نتلهّف لإهلاك مَنْ نحبّ. لهذا السرّ لا نقتل أعداءنا، ولكنّنا نميت أحبّاءنا.

ارتفع القرص، وفاض في الخلاء الضياء. طرحتُ على الأرض الجسد، وسرتُ لاقتفاء الأثر. وجدت آثار قدميّ الحافيتين مزبوراً على تراب القاع. حرصت أن أنزع في الليل النعلين احتيالاً على شبح الليل، وإمعاناً في الحرص على اقتناص الأثر. في

السفوح العليا المفروشة بحجارة الحزيز تغيّب الأثر، ولكنّي استعدته ما أن بلغت الحزام الرمليّ الذي يطوّق خاصرة الجبل. هناك وجدت آثار قدميّ الحافيتين في مسيرة الذهاب، وآثار القدمين في مسيرة الإياب أيضاً. آثار الإياب لم تسر في الاتجاه المضادّ وحسب، ولكنّها تبدّت، في وعوثة الحزام، أشدّ غوراً. عدت على عقبي قبل أن أبلغ الغار.

عدت لأسائل نفسي. عدت لأحتال على نفسي. عدت لأفتّش عن مكيدة أزمّ بها المارد الذي ينام في صدري. عدت إلى الوادي لأستوضح الأرض، ولأستجدي من جوفها الوصيّة. قبل أن أهجع لأستشير أمّي الأرض، حملت كنزي إلى الغار. أعدته إلى الهاوية في حضيض الصلد، وعدت إلى الوادي لأهجع. هجعت، وعندما أفقت أدركت أني غفوت، ولكني لم أستطع أن أعلم كم استغرقت غفوتي. ما أدركته في غفوتي حقّاً هو ما عملت على تحقيقه على الفور. نهضت واقفاً وانطلقت. انطلقت عبر السهول التي تترامى شرقاً إلى الأبد. اجتزت الوادي، وسلّمت أمري للخلاء الخالد. فررتُ. قرّرتُ أن أبتعد. عاهدت نفسي أن أهجر الوطن تلبية لوصية الأرض. اندفعت في الخلاء دون أن أسأل نفسي عما إذا كنت أستطيع أن أحتمل فراق الوطن. اندفعت في الخلاء لأنّ الاندفاع في الخلاء هو السبيل الوحيد لقتل البلبلة، ودفع المارد إلى القُمقم. ابتعدت كثيراً، وأخذ منّي الإعياء كثيراً، فهجعت ما أن حلّ المساء. نمت في الحال. غفوت ما أن أغمضت عينيّ، ولكنّي، عندما استيقظت في الصباح، وجدت نفسي أستلقي في مدخل الغار، وشبح القرين ينتصب فوق رأسي.

٤٠

هزمني المارد الخفيّ فقرّرت أن أختله بحيلة طفوليّة. دفنت الجسد، وانتظرت حلول المساء. نزلت إلى الوادي وأحكمت الوثاق حول الرجلين. شددت الرسغين بحبل من حبال المسد، وربطت الطرف الآخر إلى شجرة طلح. غالبت النعاس لأبتسر الليل. طردت النوم لأكتم أنفاس النصيب الأطول من الليل. حاربت السبات لأقطع الطريق على كيد الداهية الذي يسكنني ويستولي على صدري. حاربت طويلاً، ولكنّ النعاس في النهاية غلب. غلب برغم صمودي في الوضع العمودي. اختلسني في جلستي كما اختلس الداهية الجسد من هوّة القبر. النوم اللئيم يستدرجني ليختلسني من نفسي ليطلق سراح الأسير الذي ينام في صدري. ليطلق سراح المارد الذي آلى على نفسه أن يستعيد لي من الهاوية شرخي. لا يستطيع المارد أن يأتيني بشقّي الضائع، إلاّ إذا استعان بحارس لئيم إسمه النوم. المارد الذي يستخرج الكنوز هو

الكنز، والنوم، لمارد الكنوز، طلسم. النوم أعماني ليوقظ في جوفي سرّه الخفيّ. النوم استدرجني ليطلق من قمقم المجهول المارد. لأنّ الداهية لا يقدر أن يتحرّر وينطلق لاستخراج الكنوز من الغيران إلاّ إذا في غفلة منّي. لأنّ الداهية لا يستطيع أن يحضر إلاّ إذا احتضرت أو ذهبت لأسكن أوطان الغيب. لأنّ الداهية لا يستطيع أن يحيا إذا لم أمت، ولا يموت إلاّ إذا بعثُّ إلى الحياة حيّاً. لأنّ المارد داهية، كالقرين الفقيد، لا حيلة لي في امتلاكه وهو على قيد الحياة، لأنّ قدرنا ألاّ نمتلك الأحياء، لأنّ الأحياء، على الضدّ، هم الذين يمتلكوننا ما ظللنا على قيد الحياة؛ لأنّنا، بالموت حسب، نستطيع أن نمتلك الأحبّاء، لأنّهم لن يعود بمقدورهم أن يمتلكونا. الداهية أيضاً امتلك حقيقة الأحياء، وعرف سرّ الأموات. الداهية أيضاً قرّر، في كلّ مرّة، أن ينالني ميّتاً، أن يستغفلني نائماً، ليتلبسني، ويتنكّر في جلدتي، ويذهب ليسطو على المغاور ليستخرج الكنوز من ممالك الأموات. فهل يدري مولاي «إيكدي» كيف احتال الداهية ليتحرّر من الأسر؟

لقد استلّ المدية من الغمد المدسوس تحت رُدن الثوب، وقطع الحبل الفظيع في الجزء الملفوف على الشجرة، ثم أعاد السلاح إلى جلدة الغمد، وانطلق بالجرم إلى الغار. ويبدو أنّ الصباح باغته هناك، فلاذ بالفرار قبل أن يتمكّن من حمل الكنز إلى الأسافل، لأنّي وجدتُ نفسي، عندما صحوت، أهجع إلى جوار القرين في مدخل الغار. لم توقظني أشعة الضُّحى، ولكن دبيب الديدان على جسدي هو الذي أيقظني. ولكنّي، عندما استيقظت، اكتشفت أنّ غزوات أسراب الذباب كانت أشرّ من زحف جيوش الديدان، ونتانة البدن المتعفّن أسوأ من غزو الذباب، وإخفاق الحيلة الطفوليّة أمرّ من استنشاق العفن.

أقلعت عن العراك منذ ذلك اليوم، ولم أذهب لأواري الجثمان في تراب الغار أبداً، لأنّي أدركت، أخيراً، أنّ القرين الذي كان لي

كُلاً في جوف المجهول الذي سبق الميلاد، وصار لي همّاً وعلّة وزلزالاً في رحلة الوجع التي تلت الميلاد، سيظلّ لي كلاً، سيبقى لي قدراً، حتى بعد أن عبر إلى الضفّة الأخرى، وتوارى وراء جزع واد إسمه الحياة. عاندت الجثمان حتى تيبّس. عاندت الديدان والذّباب والعفن وسوائل الصديد الكئيب حتّى تهرّأ اللحم، وتعرّى هيكل العظام، فاحتلت على الجرم، وابتدعت من الهيكل العظمي دمية عظيمة. شددت الفقرات والمفاصل بالخيوط، وألبستُ دميتي ثياباً، ولففتُ حول الجمجمة الجليلة لثاماً، وصنعت للقرين وراء السرج قتباً مريحاً، وأردفته على ظهر البعير خلفي، وسافرتُ به إلى الأبد. سافرت به أينما حللت، وأنزلته أينما نزلت، وجالسني أينما جلست، وجاورني أينما هجعت. لقد عرفتُ رعاةً كثيرين استخرجوا من القبور جماجم أسلافهم ليتّخذوها تمائم يرهبون بها الجنّ وسكّان الظلمات، ولم أتخيّل يوماً أنّ الزمان سيجبرني على اعتناق ناموسهم لأصنع من عظام القرين دمية أتقرّب بها إلى المجهول، واستأنس بها في خلوتي، وأرهب بها الكائن المجنون الذي ينام في صدري.

٤١

ولكنّي لم أهنأ بلعبتي طويلاً، لأنّ الأطفال الذين يلفّقون الدمى، يعمدون إلى تحطيم ما ابتدعت أيديهم لا اجتناباً للضجر، ولكن رفضاً للزّور. اكتشفت يوماً أنّ حيلتي لنيل القرين مضحكة، وتلفيق الدمية لم يكن، في الحقّ، إلاّ يأساً، لم يكن إلاّ فراراً، لم يكن إلاّ زيفاً في زيف. أدركت أنّي كنت طوال ذلك الزمان أخادع نفسي، وأتظاهر بالسير في دربي الذي سيقودني إلى الوطن، إلى الفردوس، إلى برّ القرين. اكتشفت أنّ الاحتيال ديانة الإنسان للفرار من نفس الإنسان، وكلّ ما نبتدعه في الحياة ليس سوى تدبير لئيم لخداع أنفسنا، والنجاة من ذلك المصير الذي لا ينجينا إذا لم يحقّق لنا النجاة من أنفسنا. اكتشفت أنّ عليّ أن أتخلّى عن سبيل الكُلّ إذا شئت ألاّ يبتلعني سبيل الخداع الذي ابتلع الكُلّ. اكتشفت أنّ عليّ أن أفهم أنّ إماتة من نحبّ أمر لا يكفي لنيل من نحبّ. اكتشفت أنّ نيل من نحبّ يستلزم أن نميت

أنفسنا أيضاً، لأنّ العاشقين لن يلتئما في كلّ أبديّ إلاّ إذا كان الموت وطناً لكليهما. قرّرت أن أضع حدّاً للخدعة التي تسمّيها الأقوام حياةً لأنّ الاستمرار في الخدعة صار لي قصاصاً أسوأ من الهلاك. فهل يدري مولاي «إيكَدي» شيئاً عن السرّ الذي عرقلني فأرجأت أمري؟ أرجأت، يا مولايَ، أمري، لأنّي قررت أن أروي أمري. أرجأت أمري لأني، إن لم أرو للفصول أمري، فلن يصدّقني الأخلاف، لأنّ الفصول سوفَ لن تستطيع أن تروي للأجيال أمري. وعلّ من حقّ مولاي أن يتساءل عن سرّ حرص هذا المخلوق المبهم، الملقّب إنساناً، على رواية أمره للأغيار، حتّى إذا غاب من الساحة أغيار لم يطق وجودهم إلى جواره يوماً، هرع ليروي أمره لسكّان الخفاء، حتى إذا انفضّ رجال الجنّ من حوله ضجراً، أو استخفافاً، أو لسبب من الأسباب، انقلب على عقبيه، وسكن إلى السماء، ليجد في الفصول خُلاّناً رحماء اعتادوا أن يلتقموا النبوءة من فم الخفاء، فكيف لا يهبون آذاناً صاغية للمخلوق الذي وهبهم نفسه؟ بلى يا مولاي. نحن نهب أنفسنا عندما نهب لساننا. نحن نضحّي بأنفسنا عندما نروي أمرنا. نحن نقدّم دمنا قرباناً عندما نُسْمِع الأغيار صوتنا. ولكنّ الأغيار يستهينون بصوتنا، بدمنا، بقربِاننا، فلا نجد سبيلاً لإنقاذ حياتنا غير الانكفاء إلى انفسنا لنصبّ أصواتنا في آذاننا، لأنّنا لا نحيا إن لم نسمع أصواتنا. لأنّنا لا نحيا إن لم نرو حياتنا. لهذا السرّ أرجأت أمري إلى حين أنتهي من رواية أمري. لَهذا السرّ اعتصمت بذيول الفصول لأنّ الإنسان المهجور لا يملك مَنْ يسرّ له بأمره غير الفصول. سردت على مسمع الفصول أمري لا لألتقط من شفتيّ الصوت لأصدّق أنّي ذقت طعم هذه الحياة يوماً، ولكنّ الظمأ إلى فهم اللغز استوفزني أيضاً، ودفعني لسرد روايتي دفعاً، لأنّنا لا نفهم إن لم نتكلّم، لأنّنا لا نكتشف إن لم نفتّش، لأنّنا لا نرتوي إن لم نروِ. ولكن المفاجأة أنّي لا أستطيع أن أستعيد سيرتي دون أن

يحترق حلقي بطعم المرارة. لم تكن تلك المرارة ناتجة عن ندم من أيّ جنس، ولم تكن فجيعتي ناجمة عن ضرب من ضروب الحسرة، أو حتى إثم من الآثام، ولكن الهول أنّ حياتي هي الإثم، وليس ما ارتكبته من آثام. لأنّ ما ارتكبته من آثام ليس إلاّ حيلة لمداواة الإثم الأكبر الذي اقترفته الأقدار في حقّي يوم رمتني إلى العراء المميت بعد أن فلقتني إلى نصفين، وكبّلتني بلعنة طاردتُ بموجبها شقيّ المعزول دون أن أفلح في استعادة اللّبّ الضائع، فارتكبت خطأ مميتاً آخر عندما توهّمت أنّي أستطيع أن أفوز من اللعبة بكنز لم أهبه لها، فطالبتُ بما لا يجب أن يُطالب، لأنّي ظننت، واهماً، أنّ الحياة تستطيع أن تهبني ما لم أهبه لها، ونسيت أنّها ليست إلاّ ذلك الوعاء الخاوي الذي لا يهبنا إلاّ ما وهبناه، ويحرمنا دائماً ما بخلنا به عليه، لأنّ ليس من حقّها أن تخالف ناموس الصفقة التجارية التي تهب كنزاً مقابل الكنز، وتعطي هباء كاذباً إذا استودعناها هباء كاذباً. ذلك أنّ الحياة لا تعترف بالاستثناء، لأنّها لا تهبنا إلاّ نفسها، وعلينا أن ندفن فيها ذلك السرّ النفيس الذي يسمّيه قدماء الكهنة سعادة، إذا شئنا حقّاً ألاّ تنقلب بين أيدينا زيفاً شبيهاً بذلك الزيف الفظيع الذي تستنكره القبائل في برق الخُلَّب الذي ينهش غيوم الآفاق بالشرر، ولكنّه يعبر ويتلاشى دون أن يجود بقطرة مطر؛ فهل يستنكر مولاي الآن، أو يستعجب، إذا مددت يدي لأستلّ من الغمد مُديتي، وأقلب النصل إلى النحر، لأضع لروايتي حَدّاً؟

(نهاية الجزء الثالث)

تون (الألب السويسري) - طرابلس (ليبيا)

١٩٩٨ - ١٩٩٩م

أغاني صاحب الفصول

الرّيح

١

صوت الريح، في خلاء الصحراء، نواح.
صوت الريح، عندما تعترضه شجرة رتم، غناء.

٢

المجد للريح الذي يستدرج الأشجار لتغنّي، وترقص، وتقرأ الأشعار.

٣

سرّ قوة الريح - هشاشة الريح.

٤

الريح غالب لا يُغلب، لأنّه كائن خفيّ.

٥

لم تُخلق الريح إلاّ لتجعل من الأشجار كائنات حيّة.

٦

لا تتكلّم الأشجار إلاّ اذا هبّت الريح.

٧

الخريف، بالرّيح، يعرّي.

٨

الريح، في قبضة الخريف، عَوْن مارد.

٩

بالريح تذهب أشجارٌ إلى المنفى. بالريح تعود أشجارٌ من المنفى.

١٠

خُلق الريح ليصير للفصول نذيراً.

١١

الشجر، بريح الخريف، طريد. الشجر، بريح الربيع، وليد.

١٢

أوراق الأشجار - قرطاس تكتب فيه الفصول نبوءتها.

١٣

يجرّد ريح الخريف لباس الأشجار، ليدفعها إلى النوم في أحضان الشتاء عارية.

١٤

أوراق الأشجار رقعة أخرى تكتب فيها الفصول نبوءتها.

١٥

في لوح الطبيعة تمحو الفصول اليوم، ما كتبته بالأمس.

١٦

ينحر ريح الخريف أوراق الشجر قرباناً على مذبح الأبديّة.

١٧

نحسب الريح مارداً أعمى إذْ نراه يجتثّ أوراقاً لم يصر لها اللون علامة سقوط، ولكن الريح رسول لا يعترف باللون، لأنّ ناموسه الوقت.

١٨

اللون، في عُرف الريح، سترٌ. والوقت في عُرف الريح، وصيّة.

١٩

اللّون في ورق الشجر غلاف، والوقت، في ناموس الريح، رسالة.

٢٠

في غزوة الريح تلاقي أوراق الأشجار مصرعها.

٢١

يجيء ريح الخريف بمعيّة الغيث، ليكون له الغيث، في الإطاحة بالأوراق، عوناً.

٢٢

لا يكتفي ريح الخريف بتحويل أوراق الأشجار جثثاً، ولكنّه ينثر الأوراق في كلّ فضاء لا تمثيلاً بالجثث، وإنما تيقّناً من تنفيذ الوصيّة.

٢٣

تتحوّل أشجار الخريف أعواد مشانق لأوراق تعمّد أن يُبقي عليها

الريح.

٢٤

لا تموت الأشجار واقفة. تموت الأوراق، ولكنّ الأشجار تبقى واقفة.

٢٥

لو لم يذهب الريح بالأوراق في الخريف، لما عاد الريح بالأوراق في الربيع.

٢٦

أشجار الخريف تتعرّى سريعاً، لأنها تتلهّف للقاء معشوقتها الأبديّة.

٢٧

الخريف - ذلك الميعاد الذي تتأهّب فيه الأشجار للهجرة الى مملكة الأبديّة.

٢٨

دخول الأبديّة خريفاً، العودة من الأبديّة ربيعاً - أعجوبة الأشجار.

٢٩

ريح الخريف لا يوشوش في فروة الشجرة عشقاً، ولكنّه يتلجلج بنبوءة اسمها الفناء.

٣٠

ريح الربيع، للأشجار، أهزوجة؛ ريح الخريف، للأشجار، مرثيّة.

٣١

ريح الربيع - أغنية.
ريح الخريف-مرثيّة.

٣٢

يجرّد ريح الخريف الأشجار من أثوابها ليقينه أن العري شرط الدخول الى حرم الأبدية.

٣٣

العري، لشجر الخريف، كفن منسوج بكفّ الريح.

٣٤

أقسمت الأبديّة، ألا يدخل رحابها كائن لم يكن له العُري كَفَناً.

٣٥

لا تأذن الأبديّة بدخول الحرم لشجرٍ لم ينهب ريح الخريف أوراقه.

٣٦

أوراق الشجرة - كلمة سرّ الشجرة: تلقيها فتفتح لها الأبديّة بابها، ترتديها فتجد نفسها في المنفى.

٣٧

بارتداء الأوراق تذهب الأشجار إلى البادية، بالتحرّر من الأوراق تذهب الأشجار إلى الخافية.

٣٨

تستنكر الريح بقاء الأوراق فوق رؤوس أشجارالخريف.

٣٩

تودع ريح الخريف ضحايا الوقت مثواها الأخير، لأنّ الإبقاء على ضحايا الوقت مشنوقةً في أعواد الأشجار ليس من شيم ريح الخريف.

٤٠

ألا يوجد، أيّها الريح، لداء الخريف ترياق؟

٤١

وباء الأشجار - الخريف.

٤٢

البعض يبدّد الحياة دون أن يدري: أسقطت الأوراق عن أشجار الخريف أم لم تسقط، أولدت الأوراق على أشجار الربيع أم لم تولد.

٤٣

كيف نأمن جانب إنسان لا يأبه لمصير الأشجار زمن الخريف؟

٤٤

لا تهلك الريح الأشجار. الريح تبيد الأشجار، لتبعث في المجهول، الأشجار.

٤٥

تستعيد الأشجار في الربيع ما تفقده في الخريف، ولكنّنا لا نستعيد في الربيع ما نفقده في الخريف.

٤٦

بحلول الربيع الأشجار تحيا، بحلول الربيع نحن نموت.

القمر

١

النهار، للقمر، منفى، ولكنّ النهار، للأرض، ميلاد.

٢

ميلاد النهار، للأقمار، شهادة وفاة.

٣

يروق للنهار أن ينسج للقمر من سحر الفجر أكفاناً.

٤

سواء كان الليل معشوق القمر، أم كان القمر معشوق الليل، فإنّ النهار، لكلا الطرفين، غريم.

٥

لولا معشوق الليل القمر، لما تغنّى العشّاق بمفاتن الليل.

٦

القمر - حجر الحكمة الذي يكشف فتنة الليل.

٧

لا وجود للأقمار، إلاّ بزوال الشموس.

٨

بالنهار القمر عابد، بالليل القمر معبود.

٩

القمر، بالظلمات، معبود. القمر، بالضياء، منبوذ.

١٠

القمر، بالظلمة، ملك، ولكنه، بالضياء، مملوك.

١١

بين القمر والشمس لا جوار.

١٢

من جود القمر أنّه لا يستأثر بالضوء المستعار.

١٣

أعجوبة القمر أنه يولد، ويهرم، ويموت، ويُبعث، من الموت، حيّاً.

الماء

١

هل الماء كنز الأرض؟
أم أنّ الماء سرّ السّماء؟

٢

النهر - سيل خالد.
السّيل - نهر زائل.

٣

- من أين تأتي أيّها السيل؟
- إلى حيث أذهب. من هناك أجيء.
- إلى اين تذهب أيّها السيل؟
- من حيث أجيء، إلى هناك أذهب.

٤

الماء لا يُقهر لأنّه هشّ.
والهشاشة لا تُغلب لأنّ الخصم لا يستطيع أن يفعل بها أكثر ممّا هي عليه.

٥

سرّ قوّة الماء في مرونة الماء.

٦

في تدفّق الماء التواء يجنّبه المواجهة. إذا اقترب من العقبة انحرف وتحايل على العقبة. لو اهتدى الإنسان بالماء لكفى نفسه شرور الصدام.

٧

كم كان وجودنا سيكون موحشاً وقبيحاً لو لم نجد إلى جوارنا جبلاً وشجرة، نهراً وطيراً.

٨

السماء العارية من الغيم يجب أن تنال استحساننا عندما يتصل الأمر بالطقس، ولكنها يجب أن تجابه باستنكارنا عندما يتعلّق الأمر بالحياة.

٩

الصحراء فردوس بالحرّية، لا بالماء.

١٠

لو لم تفقد الصحراء الماء، لما صارت الحرّية لها ماء.

١١

في حضور الماء غياب الحرية.

١٢

حول الماء يتزاحم الخلق. وحيثما تزاحم الخلق فرّت الحريّة.

١٣

الصحراء - فردوس من عدم.

١٤

لا تنتعش العبوديّة إلاّ على شطآن المياه.

١٥

فتنة الغيث ليست في قدرته على غسل السماء من الغبار والأهوية الفاسدة، ولكن في قدرته على غسل الطرقات من السابلة.

١٦

يُخلي الغيث الطرقات من المارّة لكي يختلي بعابر يخرج لملاقاته وحيداً.

١٧

يعشق الغيث من لا يخاف الغيث.

١٨

يعشق الغيثُ عاشقه.

١٩

الغيث كالله يحبّ من يحبّه لا مَنْ يخافه.

٢٠

مَن يسترخي بين يدي السيل، ويسلّم أمره لتيّار الماء، لا يخونه الماء، ولكن إذا سلّمنا أمرنا في يد الإنسان خاننا الإنسان.

٢١

الماء يغسل الجسد، والصحراء تغسل الروح.

٢٢

من يرى ماءً يتدفّق ولا يوقفه، كَمَنْ يرى جريحاً ينزف ولا يهرع لنجدته.

٢٣

الدم - ماء الإنسان.
الماء - دم الأرض.

٢٤

مسيرة سيول «الحمادة الحمراء» أمثولة لمسيرة الإنسان على الأرض: تبدأ السيول في الأعالي غضّةً، هزيلة، خجولةً، ثم تنتعش قليلاً في المنحدرات، وتعظم في الأحاضيض، وفي الوديان تشتدّ وتتحوّل مارداً ينهب الكائنات، وينحر لنفسه قرابين الأنعام والأنام. ولكنّ السبيل إلى البحر البعيد في الشمال ينال من السيل، فيتضاءل بالتدريج، ويختنق في مسافات تالية؛ لأنّ الطبيعة تسلّط عليه شموسها فيتبدّد، وصحراء «مجزّان» تعترضه برمالها فيتبخّر ولا يبلغ البحر أبداً.

٢٥

تتساءل الصبايا في مواويل الصحراء التي يسطع في لياليها البدر: «ما ضرّ الصحراء لو غضّت الطرف عن السيل ليبلغ البحر في الشمال مرّة؟». فتجيب المغنيات المحترفات في ليال يغيب فيها البدر: «لو سمحت الصحراء للسيل ببلوغ البحر مرّة لحدث الخلل، ولفقد السيل إسم السيل، ولاستعار إسم النهر، لأنّ قدر الأنهار أن تصبّ في البحار، وقدر السيول الاختفاء في رمال «مجزّان».

٢٦

هل تريد أن تعرف شيئاً عن مملكة الأبديّة؟
تعلّم، إذن، أن تنصت لأغنية البحر.

٢٧

الماء كائن دنيوي: حيثما استقرّ، استقرّت، بالجوار، الدنيا، وحيثما رحل، رحلت وراءه الدنيا.

٢٨

صار الماء للحرّية عدوّاً، يوم صارت الدنيا، للماء، مريداً.

٢٩

الماء عذراء قدرها أن تُستباح.

٣٠

الماء: أكثر الكائنات التي تستبيحها الدنيا نُبْلاً.

٣١

لم يُخلق ماء البحر ليُشرب، خُلق ماء البحر ليغنّي.

٣٢

ماء الغيث ترياق الجسد، ماء البحر ترياق الرّوح.

٣٣

يرتوي الجسد من ماء النهر، وترتوي الروح من ماء البحر.

٣٤

ماء النهر، كجرم الجسد، مزموم يختنق بشطآنه، وماء البحر، كرحاب الروح، طليق بلا ضفاف.

٣٥

الماء أصل، والسراب، للماء، ظلّ.

٣٦

تُرى أيّ حداد ستقيمه الكائنات يوم زوال الماء؟

٣٧

حضور الماء حضور الخلق. حضور الخلق - غياب الحريّة.

٣٨

البحر ماء بلا ماء.

٣٩

الماء عنقاء لا تموت إلا لتولد، ولا تولد إلاّ لتموت.

٤٠

تموت عنقاء الماء في الأرض، ثم تبعث عنقاء الماء، في السماء: حيّةً.

٤١

الماء - عنقاء لا تموت إلاّ لتحيا، ولا تحيا إلاّ لتموت.

٤٢

في براءة الماء، يكمن سرّ تعلّق الأطفال بالماء.

٤٣

يرى الطفل في الماء نفسه، لأنّ الماء، أيضاً، طفل.

٤٤

نسبح في الماء كباراً، فنقهر نسياناً لا يُقهر، لأنّنا لا نستطيع أن ننسى يوماً كنّا فيه أجنّة تسبح في غمر بطون الأمّهات.

٤٥

الواحة جرم يقف على قدمين: قدم في الدينونة بوجود الماء، وقدم في الديمومة بمجاورة الصحراء.

٤٦

يموت الماء ليحيي.

٤٧

الماء، بالطبيعة، قربان.

٤٨

وُلد الماء حاملاً، في الأصل، صليبه.

٤٩

لمن فقد الحريّة لا حياة، والماء يفقد الحريّة عندما يهب الخلق نفسه حياةً.

٥٠

الماء كنز يطلب قرباناً جسيماً ليهب الملأ نفسه، لأنّ الماء، بالسليقة

الأولى، قربان جسيم.

٥١

لا حياة لمن كانت حياته في أن يهب الأغيار الحياة.

٥٢

ويل لمن كان قدره أن يهب الأغيار نفسه.

٥٣

يستهين الناس بالماء، لأنّ ناموس الناس أن يستهينوا بكل شيء تلقّوه بالمجّان.

٥٤

الماء بالتسليم، مستضعف. والماء، بالتحدّي، مارد.

٥٥

وصيّة الماء تقول: «احترسوا من كلّ مستضعف».

٥٦

الماء، بالسيول، محارب. الماء، بالغدران، مسالم.

٥٧

كيف لا يكون الماء إلاهاً إذا خلا من الطعم واللون والرائحة؟

٥٨

أقبل الماء من الخافيات رسولاً يحمل بيمينه وصيّة الحياة، فصارت

له الوصيّة، في الباديات، علّة امتلاك.

٥٩

كان الماء، في الملكوت، مالكاً، فصار الماء، في النّاسوت، مملوكاً.

٦٠

بالملكوت الماء مالك، بالناسوت الماء مملوك.

٦١

أقبل الماء علينا من المنفى، فأوقعناه في المنفى.

٦٢

يتنقّل الماء من منفى الى منفى سعياً وراء الحرّية.

٦٣

صارت العبوديّة، للماء، قدراً، منذ صار الماء للحياة شرطاً.

٦٤

الماء يموت فينا ليحيينا، ولكنه يحيا بحياتنا.

٦٥

لا نحيا إن لم نُمتِ الماء.

٦٦

نبيد الماء في الطبيعة، لنحيي، بموته، الطبيعة في أنفسنا.

٦٧

الماء، كالهواء، مهانٌ حتى يوم يُفتقد.

٦٨

استهانتنا بالماء – برهان على أنّنا لا نستهين إلاّ بالأشياء التي لا غنى لنا عنها.

٦٩

الماء يحيي، ونحن نميت.

٧٠

الماء يحيينا ليميت نفسه، ونحن نميت الماء لنحيي أنفسنا.

٧١

بالماء يحيا الجسد، بالحرّية تحيا الروح.

٧٢

بالماء ينتعش الجسد، بغياب الماء تنتعش الروح.

٧٣

الماء، للجسد، روح.

٧٤

الروح، للماء، خلّ حقيقيّ.

٧٥

الماء دم الجسد، والروح، للماء، دم.

٧٦

الروح والماء عاشقان لا يفترقان: يجيئان معاً، ويذهبان معاً.

٧٧

الماء، للرّوح، جسد.

٧٨

الحياة شجرة: جذعها الماء، والرّوح، لها جذر.

٧٩

من مياه الروح يرتوي الماء.

٨٠

الماء رسالة لا نعرف فحواها إلاّ إذا افتضضنا بكارتها.

٨١

الماء هو الزمان، والزمان هو نحن.

٨٢

مع الزمان نجيء، مع الماء نمضي.

٨٣

نحن للماء أتباع، ولكنّ الزمان لنا تابع.

٨٤

يجيء بنا الماء، ويذهب، بذهابنا الزمان.

٨٥

يسير الماء في مقدّم الركب، ويسير الزمان في ركاب الركب.

٨٦

للدينونة الماء قرين، للديمومة الزمان قرين.

٨٧

الماء - زمان سائل.
الزمان - ماء زائل.

٨٨

الماء - جسد الزمان في الباديات، والزمان جسد الماء في الأبديّة.

٨٩

سُمّ النّار الماء؛ والهواء، للنّار، ترياق.

٩٠

الماء نار تميت النّار.

٩١

الماء، مع النّار، في خصام، لأنّ النّار، مع الحياة، في خصام.

٩٢

ارتياد الأوطان التي لم يستوطنها الهواء أعجوبة الماء التي أعجزت النار.

٩٣

بالكائنات الأكثر ضعفاً، تقتصّ الطبيعة من الكائنات الأكثر جوراً.

٩٤

لا تعبد الطبيعة إلاّ كلّ كائن مستضعف.

٩٥

المستضعفون، في شرع الطبيعة، آلهة.

٩٦

لا ينجو الاستكبار من قصاص الطبيعة.

٩٧

من عاند الماء، أهلكه الماء.

٩٨

الماء يروي سيرة الأبديّة لجذور الشجر، والريح يروي سيرة الأبديّة لشعاف الشجر.

٩٩

الماء - سرّ البادية.

الزمان – سرّ الخافية .

١٠٠

الماء – شعر الطبيعة .
الزمان – شعر الأبديّة .

١٠١

بالماء نذهب إلى الحياة . بالزمان نذهب إلى الموت .

١٠٢

تشتعل الصواعق بالماء ، بدل أن تنطفىء بالماء .

١٠٣

يطفىء الماء نار الأرض ، ويشعل الماء نيران السماء .

١٠٤

بشرر البروق يشعل ماء السماء ناره ليتدفّأ .

١٠٥

الماء يغنّي ليسلّي الكائنات التي تبكي .

١٠٦

اقتران الماء والنار في بدن الإنسان – سرّ الإنسان .

١٠٧

نركب مياه الأبحر ، لنروي الظمأ إلى الطبيعة لا إلى الماء .

١٠٨

نذهب إلى الصحراء لنروي الظمأ إلى الحريّة .

١٠٩

في الصحراء يميتنا ظمأ الجسد ولكنّا، في الصحراء، نحيا بالرّوح .

١١٠

بمياه الأنهر يرتوي البدن، بمياه الأبحر ترتوي الروح .

الحجر

١

ناموس الحجر - اللامبالاة .

٢

الحياد - ناموس الحجارة .

٣

لا سلطان للرّيح على الحجر .

٤

لا تنتصر الرّيح على الحجر إلاّ بمعونة الزمان .

٥

الحجر كائن مكابر ، لأنّه معشوق الأبديّة .

٦

الحجر معبود، لأنّ الحجر لم يلد ، ولم يولد .

٧

كما ينطوي القبر على رمم الأموات ، كذلك ينطوي الحجر على سرّ الأبديّة .

٨

التراب - حجر هشّ .

الحجر - تراب صلد .

٩

الحجر - ذلك الحكيم الذي لا يتكلّم.

١٠

لا تخلد الروح إلاّ إذا استقرّت في الحجر، وشواهد القبور برهان.

١١

لا يتبدّى الحجر إلاّ ليخبرنا وصيّة خفيّة.

١٢

لم يضع الحجر لساننا، نحن من أضاع لسان الحجر.

١٣

يحتال الريح على الحجر لينتشل سرّه، ولكنّ الحجر لا يقول للريح سرّه، لأنّه، بالريح، يغنّي.

١٤

الحجر يقول، ولكنّ الخلق لا يسمع.

١٥

الخلق لم يسمعوا الحجر، لأنّ الخلق لم يعتادوا السكوت.

١٦

سكوت الحجر - نبوءة.

١٧

السكوت، للحجر، لسان. السكوت، للخلق، قصاص.

١٨

لو تخلّى الريح عن ناموس العبور، لسمع في سكوت الحجر سرّه.

١٩

مسكوناً بالوجود، يسكن الحجر العالم.

٢٠

حتى أنت، أيها الحجر، من الخلود في شكّ؟

مؤلفات ابراهيم الكوني

١ . الصلاة خارج نطاق الأوقات الخمسة (قصص) ١٩٧٤م .
٢ . جرعة من دم (قصص) ١٩٨٣ م .
٣ . شجرة الرتمّ (قصص) ١٩٨٦ .
٤ . رباعية الخسوف ١٩٨٩ .
٥ . البئر (رواية) .
٦ . الواحة (رواية) .
٧ . اخبار الطوفان (رواية) .
٨ . نداء الوقواق (رواية) .
٩ . التّبر (رواية) ١٩٩٠ م .
١٠ . نزيف الحجر (رواية) ١٩٩٠ .
١١ . القفص (قصص) ١٩٩٠ .
١٢ . المجوس (رواية) الجزء الأول ١٩٩٠ .
١٣ . المجوس (رواية) الجزء الثاني ١٩٩١ .
١٤ . ديوان النثر البرّي (قصص) ١٩٩١ .
١٥ . وطن الرؤى السماويّة (قصص) ١٩٩١ .
١٦ . الوقائع المفقودة من سيرة المجوس (قصص) ١٩٩٢ .
١٧ . خريف الدرويش (قصص - أساطير) ١٩٩٤ .

١٨ . الفم (رواية) ١٩٩٤ .
١٩ . السحرة (رواية) الجزء الأول ١٩٩٤ .
٢٠ . السحرة (رواية) الجزء الثاني ١٩٩٥ .
٢١ . فتنة الزؤان (رواية) ١٩٩٥ .
٢٢ . برّ الخيتعور (رواية) ١٩٩٧ .
٢٣ . واو الصغرى (رواية) ١٩٩٧ .
٢٤ . عشب الليل (رواية) ١٩٩٧ .
٢٥ . الدمية (رواية) ١٩٩٨ .
٢٦ . صحرائي الكبرى (نصوص) ١٩٩٨ .
٢٧ . الفزاعة (رواية) ١٩٩٨ .
٢٨ . الناموس (الجزء الأوّل) .
٢٩ . في طلب الناموس المفقود (الجزء الثاني من الناموس) ١٩٩٩ .
٣٠ . سأسرُّ بأمري لخلاّني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الأول، الشرخ، ١٩٩٩ .
٣١ . أمثال الزمان (الجزء الثالث من الناموس) ١٩٩٩ .
٣٢ . سأسرُّ بأمري لخلاّني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الثاني، البلْبال، ١٩٩٩ .
٣٣ . سأسرُّ بأمري لخلاّني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الثالث، برق الخُلَّب، ١٩٩٩ .
٣٤ . وصايا الزمان (نصوص) ١٩٩٩ .

قيد الطبع :

٣٥ . نصوص الخَلْق .
٣٦ . نصوص البرّ والبحر .

المطابع التعاونية الصحفية ش م ل، بيروت، لبنان

تموز ١٩٩٩

فليعلَم مولاي «إيكدي» إذن، أنّي لم أختطف شرخي، ولم أستبدل نجعي إلا تلبية لنداء الوطن الذي لا بدّ أن يستيقظ في القلب يوماً ليوسوس لنا قائلاً إن الإنسان عندما يستشعر دنوّ الموت لا مفرّ له إلا أن يستنجد بتربان الوطن الذي سيهبه نفسه.

خُلقنا، يا مولاي، لنحيا في كل الأوطان، ولكنّنا لم نخلق إلا لنموت في وطن ليس ككلّ الأوطان.

المؤلّف: من مواليد ١٩٤٨، الصحراء الليبية، قبائل الطوارق. حاصل على ماجستير في العلوم الأدبية والنقدية من معهد غوركي للأدب العالمي بموسكو. من مؤلفاته العديدة ما ترجم الى أكثر من ٢٥ لغة. يقيم في جبال الألب السويسرية منذ العام ١٩٩٣.

صورة الغلاف لفنّاني ما قبل التاريخ، بين الألفية التاسعة و الألفية السابعة قبل الميلاد (منطقة «مساك صطفت» بالصحراء الليبية)

ISBN 2-84289-132-5